شخصيات من الحرمين الشريفين (٣٢)

محمد بن أبي بكر ـ ربيب الإمامة وحبيبها

محسن الأسدي

شاءت له السماء أن يحتلّ منزلةً رفيعةً في الإسلام، وخصوصاً في دائرة الإمامة ومدرستها، حيث حظي بأن يكون تلميذاً نشطاً فيها، فركناً من أركانها، وعضواً واعياً فاعلاً في متابعتها، ملتزماً بتعاليمها، مدركاً لحقيقتها

وأبعادها، بعد أن تركت آثارها عليه تربيةً وتوجيهاً وتهذيباً، واستيعاباً لقيمها ومبادئها، التي هي مبادئ الإسلام وقيمه الحقة الخالصة من الشوائب، فكان مؤمناً بحق، وكان مخلصاً بحق، وكان متفانياً بحق، عارفاً بحقّانية مواقفه ضد الظالمين والمفسدين وأعوانهم، ومن تبعهم من قرناء السوء الذين أضلوا الأمة، وأفسدوا أحوالها، وأساؤوا لها أيما إساءة...

نسبه:

محمد بن أبي بكر من قبيلة تيم، التي هي واحدة من قبائل قريش في مكة، فأبوه هو الخليفة الأول أبوبكر عبدالله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك، القرشي.[1]

أمّه:

المرأة الصحابية الجليلة، أسمـــاء بنت عميس بن معد بن تيم بن الحارث، أو معد بن الحارث بن تيم بن كعب بن مالك بن قُحافة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن سعد بن مالك بن نسر، أو بشير بن وهب الله بن شهران بن عفرس بن حَلف، أو خلف بن أفتل وهو خثعم. وهي من المسلمات اللواتي سبقن غيرهن إلى الدين الحنيف، وكذا هي من المهاجرات الأوائل إلى الحبشة... وقد عرفت بمحبتها لمعرفة معالم دينها من رسول اللهﷺ فكانت تكثر من أسئلتها لهﷺ وغدت من شيعة الإمام علي عليه السلام...[2]

ولادته:

كانت ولادة محمد في كنف أبيه بذي الحليفة أو بالشجرة، وهي موضع

١. تاريخ الطبري٢ : ٣٥٠، أحداث سنة ١٣.

٢ . أنظر ترجمة حياتها في العدد ٢٥ من هذه المجلة.

بين مكة والمدينة، جنوب المدينة المنورة، حين توجه رسول اللهﷺ إلى حجته، التي سميت بحجة الوداع من شهر ذي القعدة أو لخمس بقين من ذي القعدة سنة ١٠ هجرية.

ويعدُّ محمد الولد الوحيد لأبي‌بكر من زوجته أسماء، التي تزوجها في الإسلام، أي لم تلد له غيره. وله ذرية من نساء آخر تزوج بهن في الجاهلية وفي الإسلام. وقد توفي لثمان بقين من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣، وكان عمر محمد يوم ذاك عشرين شهراً..

اسمه وكنيته:

في خبر يحمل رؤيا لأمّه أسماء يأتينا تفصيله، أنّ النبيﷺ جاء عنه في تعبير تلك الرؤيا: «.. ولكن يرجع أبوبكر صالحاً، فيلقي أسماء، فتحمل منه أسماء بغلام تسميه محمداً ..».

وفي رواية أنّ عائشة سمت محمد بن أبي بكر وكنته أبا القاسم، فكان محمد بن أبي بكر يكنّى أبا القاسم، وغدا اسماً لابنه فيما بعد، وفي خبر آخر: كان محمد بن أبي بكر قد سمى ابنه القاسم، فكان يكنى بأبي القاسم، وأنّ عائشة كانت تكنيه بها، وذلك في زمان الصحابة، فلا يرون بذلك بأساً...

مناقبه:

كان محمد من عُبّاد المسلمين ونسّاكهم، يُثنى عليه لفضله، وعبادته، وجهاده، وولائه لأهل البيتعليهم السلام.. ويكفيه فخراً أنّ الإمام عليعليه السلام كما قال ابن عبد البر: كان يثني عليه ويفضله، وكانت له عبادة واجتهاد، أو لأنه كانت له عبادة واجتهاد...[1]

١ . أنظر في ذلك: تاريخ الطبري٢ : ٣٤٨ ؛ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر٢ :

محمد في بيت الإمامة:

شاءت السماء لهذا العبد الصالح أن يتدرج في طفولته ونشئته في أصدق بيت من بيوت العالمين وأطهرها، فقد ضمّت أسماءُ ابنها محمداً، وكان عمره ثلاث سنوات إلى أولادها عبدالله ومحمد وعون من الشهيد جعفر بن أبي طالب المعروف بالطيار، وهو أخ للإمام علي عليه السلام، حين تزوجها الإمام عليه السلام بعد انتهاء عدتها لوفاة زوجها أبي بكر، وانتقلت إلى بيته عليه السلام؛ وعاشت معه، وقد أولدها يحيى وعوناً، فكانت صورة رائعة للمرأة المسلمة المربية، حيث تعهدت تربية أبنائها الستة في بيت ارتضاه الله تعالى أن يكون من بيوته بيت إيمان وطهر، بيت إمامة وصدق..؛ فراحوا يتذوقون مفاهيم وآدابه، ويتعلمون أحكامه، وقيم النبوة والإمامة من أصدق منابعها، وهي تدعو الله أن يصلح بالهم، وأن يجعلهم على صراطه المستقيم..

لقد كانت مثالاً حيّاً للزوجة الصالحة، والأم المربية، فجعلت الإمام عليه السلام معجباً برجاحة عقلها، وهو ما تنطق به سيرتها، وما نجده واضحاً في مثال نسوقه على ذلك؛ حينما اختلف كل من ولديها:

«محمد بن جعفر و محمد بن أبي بكر» وراح كل منهما يتفاخر بأبيه، فقال كل منهما للآخر: «أنا أكرم منك، وأبي خير من أبيك».

وأحال الإمام علي عليه السلام هذا الأمر إليها رضوان الله تعالى عليها لتقضي بينهما. اذن كيف استطاعت أن ترضيهما؟!

وقفت أسماء بينهما، و قالت غير مترددة ولا منتظرة طويلاً: ـ «ما رأيت شاباً من العرب خيراً من جعفر، ولا رأيت كهلاً خيراً من أبي بكر». فسكت

حرف الميم، محمد بن أبي بكر؛ أسد الغابة٢ : ٤٨٨ ؛ الإصابة في معرفة الصحابة ٣ : ١٣١؛ والأعلام، للزركلي ٦:٢١٩؛ والغارات ٢ : ٧٥٨.

الولدان، وتصالحا.

فقال علي عليه السلام مداعباً: ـ «فما أبقيت لنا، أو ما تركت لنا شيئاً، ولو قلت غير الذي قلت لمقتك!

قالت: إنّ ثلاثة أنت أحسنهم خياراً!

أنظر هذا فيما رواه زكريا بن أبي زائدة: سمعت عامراً يقول: الخبر أعلاه.

وانظر ابن عيينة، عن إسماعيل، عن قيس، قال: قال علي رضي الله عنه: «كذبتكم من النساء الخارقة، فما ثبتت منهن امرأة إلا أسماء بنت عميس».[1]

لقد كبرت في عين علي عليه السلام حتى أصبح يردد ذلك!

مكانته:

قدرت السماء لهذا الشاب أن يحتلّ مكانة رفيعة في الإسلام، حتى عدّه بعضهم بأنه من صغار الصحابة، فيما عدّه آخرون من كبار التابعين، وبعد كل هذا وذاك، فقد حظي بمنزلة رائعة في قلوب أهل بيت النبوة، والعلم، والطهارة عليهم السلام، لا فقط عند الإمام علي عليه السلام، بل عند الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام، اللذين راح يقتبس من نوريهما ويتأثر بهما، كما أنّ منزلته ظلّت محفوظةً عند بقية أهل البيت عليهم السلام، وعند الصالحين من أتباعهم كما يأتينا.

لقد كان بحق ربيباً صادقاً، ومطيعاً، ووفياً لنهج مربيه؛ لهذا غدت كلمات الإمام علي عليه السلام تلاحقه مدحاً وثناءً عليه، ورثاءً له بعد استشهاده، ومن تلك:

«محمد ابني من صلب أبي بكر» «ولقد كان لي حبيباً، كان لي ربيباً».[2]

وهو تقييم، يبين المنزلة التي حظي بها منذ نعومة أظفاره، حينما اصطحبته

---

١ . أنظر سير أعلام النبلاء، للذهبي؛ الصحابة رضوان الله عليهم: أسماء بنت عميس، الجزء الثاني؛ وغيره من السنن، الفضائل.

٢ . نهج البلاغة ٩٨، رقم ٦٨.

أمّه إلى بيت عرف بالطهر والطهارة، ومدرسة عرفت بالعلم والمعرفة، ومبادئ الخلق والاستقامة.. فلازمه، وراح ينهل من علمه وخبرته، وكان له بمثابة التابع الأمين؛ لهذا راحت تلك الكلمات تحمل إطراءً واضحاً عليه حيّاً وميّتاً؛ بعد أن حظي بالشهادة على يد أخسِّ الخلق، قتلة أولياء الله تعالى، ثمَّ يبدعون في تزييف الحقائق، وتضليل الناس، عبر إعلام يعبر عن حقدهم، وبغضهم لكل من ينتمي لمدرسة أهل البيت سلام الله عليهم!

فكانت أقوال الإمام تشكل إعلاماً مضاداً لإعلامهم ذاك، يبين حقيقة هذا الشهيد، ومنزلته، وصدقه، وأنّ من هو ربيب لعليعليه السلام وحبيب له، لا يمكن أن ينحرف عن نهجه، وهو نهج الدين الحنيف، ولا يمكن إلا أن يكون مؤمناً مخلصاً، وتابعاً واعياً لخطِّ أمير المؤمنين عليعليه السلام، وجريئاً في قول كلمة الحق.

زواجه:

ذكرت بعض مصادر أن الصحابة لما جاؤوا بسبي فارس في خلافة الخليفة الثاني، كان فيهم ثلاث بنات ليزدجرد، فباعوا السبايا، وأمر الخليفة ببيع بنات يزدجرد، فقال الإمام عليعليه السلام: «إنّ بنات الملوك لا يعاملن معاملة غيرهن».

فقال الخليفة: كيف الطريق إلى العمل معهن؟

فقال: «يقومن؛ ومهما بلغ ثمنهن قام به من يختارهن»؛ فقومن، فأخذهن علي، فدفع واحدة لعبدالله بن عمر، وأخرى لولده الحسين، وأخرى لمحمد بن أبي بكر، فأولد عبدُ الله بن عمر ولدَه سالماً، وأولد الحسينُ زينَ العابدين، وأولد محمدٌ ولدَه القاسم، فهؤلاء أولاد خالة وأمهاتهم بنات يزدجرد.

وفي رواية: ثم جاء فتح فارس في معركة القادسية، فأسر ليزدجرد أربع بنات، كانت إحداهن من نصيب الإمام الحسينعليه السلام، فأنجبت له الإمام زين

العابدين عليه السلام، وهي شاه زنان.

والثانية شهربانويه، تزوجها محمد بن أبي بكر، فولدت له القاسم، وتوفيت شاه زنان أمّ الإمام زين العابدين، فقامت بتربيته خالته شهربانويه زوجة محمد، فأنزلها الإمام زين العابدين عليه السلام بمنزلة أمّه.

أما البنتان الأخريان، فتزوج إحداهما الإمام الحسن عليه السلام والثانية عبدالله بن عمر.

فعلى هذا يكون القاسم بن محمد والإمام زين العابدين عليه السلام أبناء خالة؛ وكان للقاسم ابنة اسمها «أم فروة» تزوجها إمامنا الباقر عليه السلام، فولدت له الإمام الصادق عليه السلام، فيكون محمد بن أبي بكر جدَّ الإمام الصادق عليه السلام لأمّه، مع العلم أنّ أمّها هي ابنة عبدالرحمن بن أبي بكر شقيق محمد.

ومن ألطاف الله على محمد بن أبي بكر أن جعل ذريته موصولة الرحم بذرية الرسول صلى الله عليه وآله، فابنه القاسم هو جدُّ الإمام الصادق من أمّه..

وقفة قصيرة:

وبما أنَّ محمد بن أبي بكر، ولد في شهر ذي القعدة في حجة الوداع سنة ١٠ هجرية، ومجيء هؤلاء الأسرى في الأكثر كان سنة ١٨ هجرية في فتح المدائن، فيكون عمره حين زواجه لا يتجاوز ٨ سنوات! هذا في حالة عدم قبول الرواية الأخرى، التي تبين أنّ قصة هذا الزواج تمّت في خلافة الإمام علي عليه السلام، فقد روي أنّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان ولى حريث بن جابر الجعفي جانباً من المشرق، فبعث إليه ببنتي يزدجرد بن شهريار، فنحل ابنه الحسين عليه السلام إحداهما، فأولدها زين العابدين عليه السلام يوم النصف من جمادى الأولى سنة: ٣٦ هجري، يوم فتح البصرة، ونزول النصر على أميرالمؤمنين عليه السلام، وغلبته على أصحاب

الجمل، وقيل: في الخامس من شعبان سنة ثمان وثلاثين...

ونحل الأخرى محمد بن أبي بكر، فولدت له القاسم بن محمد.. الذي كان من بناته أم فروة (فاطمة) زوجة الإمام الباقر عليه السلام وأمّ الإمام الصادق عليه السلام، هي المرأة النجيبة الجليلة المكرمة، واسمها قريبة أو فاطمة المعروفة بـ «أم فروة» بنت القاسم بن الشهيد محمد بن أبي بكر، وأمّها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وهذا معنى القول المنسوب للإمام الصادق عليه السلام، على فرض صحته: «إنّ أبا بكر ولدني مرتين» وفي هذا يقول الشريف الرضي:

وحزناً عتيقاً وهو غاية فخركم
بمـولـد بنـت القاسـم بن محمد

وكان أبوها القاسم من ثقات أصحاب الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، ومن قبله كان أبوه محمد بن أبي بكر من خلص الأصحاب الأوفياء الموالين لأمير المؤمنين علي عليه السلام...

المهم أنّ الروايات في تاريخ أسرهن من قبل المسلمين مختلفة، مما أدى إلى كلام في قصة هذا الزواج كلّه.[1]

الثورة ضد عثمان:

اضطربت الأخبار والأقوال في دوره في هذه الثورة، فبعضها أشارت إلى مشاركته بها، ولكنها اختلفت في كونه هو الذي باشر بنفسه قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، أو أنه شارك غيره في قتل الخليفة؛ فيما بعض آخر منها، بيّنت عدم مشاركته في الثورة، ولا في قتل الخليفة، بل حاجز دونه، فلم يفد؛ وأخبار

١ . أنظر سيرة الأئمة الاثني عشر، لهاشم معروف الحسني٢: ١١١ـ ١١٣؛ وربيع الأبرار، للزمخشري؛ وفي رحاب أئمة أهل البيت، للسيد محسن الأمين٢: ٢٩ ؛ والأنوار البهية في تواريخ الحجج الإلهية، للشيخ عباس القمي:٩٢؛ وغيرها.

غيرها بيّنت اشتراكه في الثورة قبل أن يتخلّى عن حصار دار الخلافة، وإعتزال الثوار.. وهذه أمثلة منها:

ـ قال ابن حجر: قال الطبراني: له صحبة، وهو آخر من جاء من مصر في أثر عثمان.

ـ «وكان ممّن حضر دار عثمان بن عفّان، ودخل عليه ليقتله، فقال له عثمان: لو رآك أبوك لساءه فعلك، فتركه وخرج».

ـ «نزل عليه ـ عثمان ـ جماعة فيهم محمد بن أبي بكر فقتلوه».

ـ «في حديث لعائشة تصرح فيه باشتراك أخيها محمد في الثورة مباشرة، فعن أبي الأسود قال: سمعت طلق بن خشاف يقول: وفدنا إلى المدينة لننظر فيما قتل عثمان... فانطلقت حتى أتيت عائشة فسلمت عليها... فقلت لها: يا أمّ المؤمنين فيما قتل عثمان أمير المؤمنين؟ قالت: قتل والله مظلوماً، لعن الله من قتله، أقاد الله من ابن أبي بكر به، وساق الله إلى أعين بني تميم هواناً في بيته،...».

أقول:

وهذا لا يتناسب مع ما ورد فيما يأتي؛ من أن عائشة لما بلغها مقتل أخيها محمد جزعت جزعاً شديداً، وقنتت في دبر كل صلاة تدعو على معاوية وعمرو.. ومع ما جاء من أنّ أم المؤمنين أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان واجهت أمَّ المؤمنين عائشة، بموقف غليظ قاس عند مقتل محمد بن أبي بكر، كما ينقل ابن الجوزي في نفس الصفحة عن يزيد بن أبي حبيب قال: «بعث معاوية بن حديج بمولى له يقال له سليم إلى المدينة بشيراً بقتل محمد بن أبي بكر، ومعه قميص محمد بن أبي بكر، ودخل به دار عثمان، فاجتمع إليه آل عثمان من رجال ونساء، وأظهروا السرور بمقتله، وأمرت أم حبيبة بنت أبي سفيان بكبش يشوى، وبعثت بذلك

إلى عائشة وقالت: هكذا شوي أخوك، فلم تأكل عائشة شواءً حتى لحقت بالله عزّوجلّ».

ـ ... «ثم دخل عليه ـ يعني عثمان ـ محمد بن أبي بكر، فقال: أنت قاتلي، فقال: وما يدريك يا نعثل؟ قال: لأنه أتى بك النبي... فوثب على صدره، وقبض على لحيته، فقال: إن تفعل كان يعز على أبيك أن تسوؤه، قال: فوجأه في نحره بمشاقص كانت في يده».

ـ وقد عدّد أبوبكر بن العربي المالكي من يعتقد بمشاركتهم في قتل الخليفة، ولم يذكر محمداً من بينهم...

ـ وكان علي بن أبي طالب يثني على محمد بن أبي بكر ويفضله، لأنه كانت له عبادة واجتهاد، وكان ممن حضر قتل عثمان.

وقيل: إنه شارك في دمه، وقد نفى جماعة من أهل العلم والخبر، أنه شارك في دمه، وأنه لما قال له عثمان: لو رآك أبوك لم يرض هذا المقام منك، خرج عنه وتركه، ثم دخل عليه من قتله.

وقيل: إنه أشار على من كان معه فقتلوه.

ـ وروى أسد بن موسى، قال: حدثنا محمد بن طلحة قال: حدثنا كنانة مولى صفية بنت حيي، وكان شهد يوم الدار إنه لم ينل محمد بن أبي بكر من دم عثمان بشيء؛ قال محمد بن طلحة: فقلت لكنانة: فلم قيل: إنه قتله؟ قال: معاذ الله أن يكون قتله، إنما دخل عليه فقال له عثمان: يابن أخي لست بصاحبي وكلمه بكلام، فخرج ولم ينل من دمه بشيء؛ فقلت لكنانة: فمن قتله؟ قال: رجل من أهل مصر يقال له جبلة بن الأيهم.

ـ وقال ابن عبد البر: «كان علي يثني عليه ويفضله، وكانت له عبادة واجتهاد، ولما بلغ عائشة قتله حزنت عليه جداً، وتولت تربية ولده القاسم،

فنشأ في حجرها، فكان من أفضل أهل زمانه». انتهى

ـ «وكان محمد بن أبي بكر أخذ على عثمان وخرج عليه، والصحيح أنه لم يقتله ولم يشترك في قتله، بل إنه لما دخل على عثمان في الدار ذكره بمكانته من أبيه، فخرج عنه نادماً على فعله».

ـ قال ابن كثير في البداية والنهاية: فقال: أي عثمان مهلاً يا ابن أخي، فوالله لقد أخذت مأخذاً ما كان أبوك ليأخذ به، فتركه وانصرف مستحيياً نادماً، فاستقبله القوم على باب الصفة، فردهم طويلاً فدخلوا، وخرج محمد راجعاً.

ثم قال ابن كثير: «ويروى أنّ محمد بن أبي بكر طعنه بمشاقص في أذنه حتى دخلت في حلقه، والصحيح أنّ الذي فعل ذلك غيره، وأنه استحى ورجع حين قال له عثمان: لقد أخذت بلحية كان أبوك يكرمها، فتذمم من ذلك، وغطى وجهه ورجع، وحاجز دونه فلم يفد أو فلم يقدر، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً».[1]

والذي أراه وباختصار:

أنَّ محمد بن أبي بكر قد يكون من المشاركين في الثورة إما فعلاً، وإما على مستوى التفاعل مع الثوار، وقبول مطاليبهم، انطلاقاً من كونه رافضاً للفساد، الذي استشرى في خلافة عثمان، وعند من يحيطونه خصوصاً من بني أمية.. ولكن ما روي من أنه شارك في قتل عثمان، أو تفرّد بقتله لا يستقيم مع كونه

---

١ . أنظر في هذا البداية والنهاية٧: ٢٠٦ ؛ المنتظم ٣ : ٣٩٢ ، ٣٩٣ ؛ الإصابة ٤ :٢٨٦؛ الاستيعاب ٢: حرف الميم، ترجمة محمد بن أبي بكر؛ مجمع الزوائد ٩ :٩٤ ، ٩٧ ؛ المعجم الكبير١: ٨٨ ؛ وكتاب العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد رسول الله ﷺ لأبي بكر بن العربي المالكي، وعليه تحقيقات محب الدين الخطيب؛ وغيرها من مصادر التاريخ، فقد ذكرت هذه الفتنة...

ربيب الإمام علي عليه السلام، ولم يكن طيلة سيرته إلاّ ممتثلاً للإمام، ولم يعرف بمخالفته له أبداً، ولا بأن يقف على الجانب الآخر من الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام..، ولا يتفق مع ما جاء عن الإمام علي عليه السلام: «والله، لقد دفعت عنه، حتى خشيت أن أكون آثماً».

وقد بلغ في دفاعه عنه حتى لا يكون مصيره بهذا الشكل، حتى راح مروان يعترف بذلك ويقول: «ما كان أحدٌ أدفع عن عثمان من علي». ولا ينسجم مع ما ورد من أنّ الإمام علياً عليه السلام هو الرسول بين الثائرين وعثمان؛ وكان عثمان يعد المسلمين في كل مرة بتغيير سيرته، وجعلها أكثر انصافاً وعدلاً؛ لكنه في كل مرة لم يف بما قطعه على نفسه للإمام عليه السلام، وللمسلمين الثائرين عليه، وواحدة من مخالفاته، حينما أرسل كتاباً إلى واليه في مصر، وأخيه في الرضاعة، عبدالله بن سعد بن أبي سرح، بمعاقبة وفد مصر الذين اشتكوه عنده، وفيها بلغت الأحداث ذروتها.. أَيصحُّ أنّ الإمام عليه السلام يتوسط في هذا الحدث، وربيبه يباشر قتل الخليفة أو يشارك فيه؟!

ولا يتفق أيضاً مع ما ذكرته الأخبار من مواقف للإمام علي عليه السلام في هذه الفتنة، ومنها محاولة علي عليه السلام إيصال الماء؛ لما حوصر الخليفة ومنع الماء عنه، وهو ما ذكره طه حسين: واحتال عليٌّ حتى أدخل له شيئاً من ماء، وأقبل على الثائرين فزجرهم، وقال: «إنّ الذي تصنعون ليس صنيع المؤمنين، ولا صنيع الكافرين، وأنّ الفرس والروم ليأسرون فيطعمون ويسقون..».

ولا ينسجم مع ما ورد من أنّ أمير المؤمنين عليه السلام أعانه بأولاده وأفلاذ كبده، وهذا مما اتفق عليه الرواة، كذا ذكر ابن روزبهان. وأنّ الحسن قاتل قتالاً شديداً، حتى كان يستكفه، وهو يقاتل عنه، ويبذل نفسه دونه... وأنّ الحسن بن علي

قال له: مرني بما شئت، فإني طوع يديك...، وأنّ الإمام الحسن عليه السلام قد جرح وخضب بالدماء على باب عثمان من جراء رمي الناس عثمان بالسهام، قبل أن يتسوّر الثائرون الدار عليه ويقتلوه ـ وإن كنت لا أبرئ مروان بن الحكم وحتى طلحة أو اتباعهما من دم الخليفة، واتهام الثوار بذلك لتشويه ثورتهم...، ـ ولا مع ما روي من أنّ أمير المؤمنين عليه السلام جاء كالواله الحزين، فلطم الحسن، وضرب صدر الحسين عليهما السلام، وشتم آخرين منكراً عليهم أن يقتل عثمان، وهم على الباب.. وأنّ الخبر لما بلغ علياً وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة، خرجوا وقد ذهبت عقلوهم، فدخلوا عليه واسترجعوا، وأكبوا عليه يبكون ويُعوِلون حتى غشي على عليّ ثم أفاق، فقال لابنيه: «كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب»؟ فرفع يده فضرب الحسن والحسين، وشتم محمد بن طلحة، ولعن عبدالله بن الزبير، اللذين جاءا أيضاً لحماية الخليفة، وخرج علي وقد سلب عقله، ولا يدري ما يستقبل من أمره، فقال طلحة: مالك يا أبا الحسن ضربت الحسن والحسين..؟... إلى غير ذلك.[1]

وبالتالي أيصحّ من محمد أن يعارض كل هذه المواقف لأمير المؤمنين عليه السلام وولديه الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام، وقد كان محمد متأثراً بهما أيما تأثّر، يأتيان بأمر من الإمام عليه السلام ليمنعا قتل الخليفة، فيما محمد يأتي فيتسوّر عليه الجدار ويقتله، ويفشل ما جاء الأئمة الثلاثة عليهم السلام من أجله، وهو من تربّى على مبادئهم، وتمثّل سلوكهم، واستعذب أخلاقهم، وتحلّى بمواقفهم، وسار بسيرتهم.. وكان لهم نعم الأخ المطيع؛ بعد أن عرف أنهم على الحق المبين، إن

١ . أنظر الفتنة الكبرى، للدكتور طه حسين: عثمان: ٢١٣ ؛ وإبطال نهج الباطل، لابن روزبهان٣ : ق١: ١٨٨؛ مروج الذهب ٢ :٣٤٤ و٣٤٥؛ الإمامة والسياسة ١ : ٦٣؛ الآداب السلطانية: ٩٨ ؛ العقد الفريد ٤ : ٢٩٠ و٢٩١؛ الفتوح، لابن أعثم٢ : ٢٣١،٢٢٨...

قاموا وإن قعدوا، وهذا الكلام وما يماثله يجري حتى على بقية الأصحاب المقربين للإمام علي عليه السلام، والذين هم الحواريّون بحق للإمام ومريدوه؟!

هذا إضافةً إلى ما وقعت فيه الروايات من علل في سند العديد منها، ومن تعارض واضح في متونها، فمع ما ذكرناه، نجد بعضها ينصّ على قتله للخليفة، وبعضها الآخر أنه أراد قتله، لكنه ولِما سمعه منه ترك قتله، أو أنه حاجز عنه،...

نعم، هذه الفترة الحرجة من تاريخ المسلمين. أثرت تأثيراً في نفسيته، وساهمت في صياغة شخصيته، وأضافت معرفة بدقائق الأمور إلى معلوماته؛ كيف لا تكون كذلك، وقد غربلت هذه الأحداث الشخصيات المهمة على الساحة، وميزت بصورة دقيقة ولاءاتهم...؟!

لقد رأى محمد بأم عينيه ظلم بني أمية لعليّ عليه السلام، وبغضهم له، فقد طالبوه بدم الخليفة؛ على الرغم من دفاع علي عليه السلام عن عثمان وقومه، ومنعه للثائرين من الإساءة إليه؛ لقد عرّفت هذه الأحداث محمدبن أبي بكر الحق بصورة لا تشوبها شائبة ليقف معه، ويتبع أثره مهما كانت الشدائد والصعوبات؛ فاندفع بحماسة الشباب، وروح الإيمان المترسخ عنده، لممارسة التغيير، والقيام بدوره، وفي إرجاع الحق إلى نصابه؛ فاتّهم ظلماً في جملة من اتّهم بقتل الخليفة عثمان..

من مواقفه:

إنّ حياته اتسمت بسيرة جهادية تدل على صدق إيمانه، وعظمة ولائه الواعي لأميرالمؤمنين علي عليه السلام، وقوته وشجاعته، وصبره وتحمله لما عانت منه الساحة المؤمنة يومذاك، وبغضه ونقمته على الظالمين والفاسدين وأعوانهم.. فقد شارك في العديد من المعارك، وذكرت له العديد من المواقف:

معركة ذات الصواري:

في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، اشترك محمد بن أبي بكر في معركة الصواري البحرية سنة٣١هـ ضد الروم، حيث اقتتل الطرفان قتالاً شديداً، وسالت الدماء حتى احمرت صفحة مياه البحر، وترامت فيه الجثث، ولم ينج من جند الروم إلاّ الشريد، كان هذا قبل أن ينصر الله المؤمنين في هذه المعركة، التي سميت بالصواري؛ جمع صار وهي الخشبة المعترضة وسط السفينة، أو سميت المعركة كذلك؛ لكثرة صواري المراكب، أو لكثرة ساريات السفن، التي التحمت في القتال، حيث قدر عدد سفن الفريقين المتقاتلين، وهم المسلمون والروم بألف ومئتي سفينة...[1]

مبادرته لبيعة الإمام عليه السلام:

كان محمد واحداً من أولئك الذين وصفهم الشيخ المفيد أعلى الله مقامه بأنهم من جملة مبايعي أمير المؤمنين عليه السلام الراضين بإمامته، الباذلين أنفسهم في طاعته... وراح يذكر المهاجرين فالأنصار فبني هاشم، ثم يعقب عليهم بقوله: ومن يلحق بهم في الذكر من أوليائهم وعِلية شيعتهم وأهل الفضل في الدين والإيمان والعلم والفقه والقرآن، المنقطعين إلى الله تعالى بالعبادة والجهاد والتمسك بحقائق الإيمان ، هكذا يصفهم الشيخ، وما أن ينتهي من وصفه لهم بهذه الصفات حتى يبدأ بتعداد أسمائهم، ويبدأهم بمحمد بن أبي بكر، ويعرّفه بأنه ربيب أمير المؤمنين عليه السلام وحبيبه.

وكان محمد ومعه الأشتر وعمار في مقدمة المبايعين للإمام عليه السلام، كما جاء ذلك فيما ذكره الشيخ المفيد: فلما قتل عثمان مال الناس إلى علي بن أبي طالب عليه السلام،

١ . أنظر مصادر التاريخ، منها تاريخ الطبري، أحداث سنة ٣١ ؛ و شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد ٥:٥٣.

ولم يعدلوا به طلحة ولا غيره؛ وخرجوا في طلب عليّ يقدمهم الأشتر ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر حتى أتوا علياً عليه السلام وهو في بيت سكن فيه، فقالوا له: بايعنا على الطاعة لك، فتلكأ ساعة، فقال الأشتر: «يا علي، إنّ الناس لا يعدلون بك غيرك، فبايع قبل أن تختلف الناس...».[1]

وهذا يدل على أن هؤلاء الثلاثة، الذين تقدموا الناس، كانوا الأوائل في بيعتهم، لم يسبقهم أحد فيها.

دوره في معركة الجمل:

فإضافة إلى أنه قد اشترك هو وعماربن ياسر في عقر الجمل، ولم يكن هذا حدثاً يسيراً في معركة عنيفة طاحنة، راح يدافع عن هذا الجمل وأمِّ المؤمنين فيه ـ التي يقول عنها الإمام علي عليه السلام حين بلغه خروجها: «وقد ـ والله ـ علمتُ أنّها الراكبة الجمل، لا تحلّ عقدةً، ولا تسير عقبةً، ولا تنزل منزلاً إلاّ إلى معصية؛

١ . كتاب الجمل، للشيخ المفيد: ١٦٢،١٠٨.

حتى تُورد نفسها ومن معها مورداً يُقتل ثلثهم، ويهرب ثلثهم، ويرجع ثلثهم»ـ.

أربعة آلاف مُقاتل من بني ضَبَّةَ، والأزد، وتميم، وغيرهم، تسمّروا حول الجمل، وغيرهم يهجمون عليه يريدون عقره؛ حتى قُتل خمسة آلاف من جيش الإمام عليّ عليه السلام، فيما قُتل من أصحاب الجمل: عشرون ألفاً، ثلاثة عشر ألفاً، عشرة آلاف، خمسة آلاف، فيما قال غيرهم: بما أنّ عدد أصحاب الجمل كان ثلاثين ألفاً، فيكون عدد قتلاهم عشرة آلاف، بناءً على النبوءة المذكورة للإمام...[1]

وسجل محمد بن أبي بكر دوراً آخر واضحاً في معركة الجمل، وبالذات مع أخته أمِّ المؤمنين عائشة، التي كانت الأبرز في حركة الناكثين لبيعة الإمام علي عليه السلام مع الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله؛ اللذين بايعا الإمام عليه السلام ثم نكثا بيعتهما له، وراح الثلاثة يعدون عدتهم، ويُهيؤون أتباعهم، وانطلقوا في حركتهم هذه حتى وقعت معركة الجمل في البصرة..

لقد كان محمد واحداً ممن دعاهم أمير المؤمنين عليه السلام وهم عبدالله بن عباس، ومحمد بن أبي بكر، وعمار بن ياسر، وسهل بن حنيف، وأخبرهم بمسير طلحة والزبير إلى البصرة، فقال محمد بن أبي بكر: ما يريدون يا أمير المؤمنين؟

فتبسم عليه السلام وقال: «يطلبون بدم عثمان!».

فقال محمد: والله، ما قتل عثمان غيرهم.

ثم قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أشيروا عليَّ بما أسمع منكم القول فيه».[2]

---

١ . العقد الفريد٣: ٣٢٤؛ تاريخ الطبري٤: ٥٣٩؛ الكامل في التاريخ٢: ٣٤٦، البداية والنهاية٧: ٢٤٥؛ مروج الذهب٢: ٣٦٠؛ الإرشاد: ١: ٢٤٦.

٢ . كتاب الجمل، للشيخ المفيد: ٢٤٢.

السفارة:

وأُرسل محمدٌ في سفارة إلى أبي موسى الأشعري بالكوفة في عهد أمير المؤمنين عليه السلام، **فقد** ذكر أن علياً أنفذ إلى أهل الكوفة رسلاً، وكتب إليهم كتاباً عند خروجه من المدينة وقبل نزوله بذي قار... يستنفرهم للجهاد معه، والاستعانة بهم على أعدائه الناكثين لعهده، الخارجين لحربه، فكان مما رواه الواقدي أن قال: حدثني عبيد الله بن الحرث بن الفضل عن أبيه قال: لما عزم علي عليه السلام على المسير من المدينة، لرد طلحة والزبير، بعث محمد بن الحنفية ومحمد بن أبي بكر إلى الكوفة، وكان عليها أبو موسى الأشعري، فلما قدما عليه، أساء القول لهما وأغلظ، وقال: إنّ بيعة عثمان لفي رقبة صاحبكم وفي رقبتي ما خرجنا منها.

ثم قام على المنبر وقال:

أيها الناس إنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن أعلم منكم بهذه الفتنة فاحذروها، إنّ عائشة كتبت إليّ أن أكفني من قبلك، وهذا علي بن أبي طالب قادم إليكم، يريد أن يسفك بكم دماء المسلمين، فكسروا نبلكم، واقطعوا أوتاركم، واضربوا الحجارة بسيوفكم.

فقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه لمحمد بن أبي بكر: يا أخي ما عند هذا خير. ارجع بنا إلى أمير المؤمنين نخبره الخبر، فلما رجعا إليه وأخبراه الحال، وقد كان كتب معهما كتاباً إلى أبي موسى الأشعري أن يبايع من قبله على السمع والطاعة، وقال عليه السلام له في كتابه: «أخرج الناس عن حجزتك، وارفع عنهم سوطك، واجلس بالعراق، فإن خففت فاقبل، وإن ثقلت فاقعد»؛ فلما قرأ الكتاب قال: أثقل ثم أثقل...[1]

١ . أنظر أعيان الشيعة، محسن الأمين١: ٤٥٤ ؛ وكتاب الجمل: ١٣٩ـ١٤٠.

لقد شهد محمد بن أبي بكر مع الإمام علي عليه السلام معركة الجمل، وكان فيها قائد جميع الرجّالة، وناداه أمير المؤمنين عليه السلام: «يا محمد بن أبي بكر! إن صُرعت عائشةُ فوارها (أو فدارها) وتولَّ أمرها».

فتضعضع القومُ حين سمعوا ذلك واضطربوا... ولما أحدقوا بالجمل، وصار القتال حوله... صاح الإمام عليه السلام: «يا ابن أبي بكر اقطع البِطانَ!».

البطان: حزام الرحل والقَتَب، وقيل: هو للبعير كالحزام للدابة.[1]

فأسرع محمد ابن أبي بكر رحمه الله، فقطعه، واطَّلع على الهودج، فقالت عائشة: من أنت؟ فقال: أبغض أهلكِ إليكِ. قالت: ابن الخثعمية؟ قال: نعم، ولم تكن دون أمهاتكِ. قالت : لعمري بل هي شريفة، دع عنك هذا، الحمد لله الذي سلّمك. قال: قد كان ذلك ما تكرهين. قالت: يا أخي لو كرهتُهُ ما قلتُ ما قلتُ. قال: كنتِ تحبين الظفر وأني قُتلتُ. قالت: قد كنتُ أحب ذلك، لكن لما صرنا إلى ما صرنا إليه، أحببتُ سلامتك؛ لقرابتي منك، فاكفف ولا تعقِّب الأمور، وخذ الظاهر، ولا تكن لومةً ولا عذلةً، فإن أباك لم يكن لومةً ولا عذلةً...

وفي خبر عن عائشة: ... فإذا ابن أبي طالب أنظر إليه يباشر القتال بنفسه وأسمعه يصيح: «الجمل! الجمل!». فقلت: أراد والله قتلي، فإذا هو قد دنا منه ومعه محمد بن أبي بكر أخي، ومعاذ بن عبيد الله التميمي، وعمار بن ياسر، فقطعوا البطان، واحتمل الهودج فهو على أيدي الرجال يرفلون به، إذ تفرق من كان معنا فلم أحس لهم خبراً...

وفي خبر آخر: وجاء الإمام عليه السلام وقرع الهودج برمحه وقال: «يا حميراء! بهذا أوصاكِ رسول الله صلى الله عليه وآله؟!

١ . لسان العرب، لابن منظور١٣: ٥٦، بطن.

فقالت: يا ابن أبي طالب ملكت فاصفح، وظفرت فاسجع.

فقال الإمام عليه السلام: «والله ما أدري متى أشفي غيظي؟ أحين أقدر على الانتقام يقال لي لو غفرت؟ أم حين أعجز من الانتقام فيقال لي: لو صبرت؛ بلى أصبر، فإنّ لكلّ شيء زكاة، وزكاة القدرة والمكنة العفو والصفح، ثمّ التفت عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر وقال: شأنك بأختك فلا يدن منها أحدٌ سواك، وأمر الإمام فاحتملت عائشة بهودجها إلى دار عبدالله بن خلف في البصرة، وأمر الجمل أن يحرق، ثمّ يذر رماده في الريح، وأشار إلى الجمل وقال: «لعنه الله من دابّة، فما أشبهه بعجل بني إسرائيل».[1]

فهو الذي حمل الهودج من بين القتلى، فأمر الإمام علي عليه السلام أن يضرب عليه قبة، ثم قال لمحمد: «أنظر هل وصل إلى أختك عائشة شيء من جروح؟».

وفي خبر: ونادى أمير المؤمنين عليه السلام محمداً، فقال: «سلها هل وصل إليها شيء من الرماح والسهام؟» فسألها فقالت: نعم، وصل إليَّ سهم خدش رأسي وسلمتُ منه، يحكم الله بيني وبينكم.

فقال محمد: والله ليحكمنَّ الله عليكِ يوم القيامة، ما كان بينكِ وبين أمير المؤمنين عليه السلام حتى تخرجي عليه، وتؤلبي الناس على قتاله، وتنبذي كتاب الله وراء ظهرك؟!

فقالت: دعنا يا محمد، وقل لصاحبك يحرسني.

قال: والهودج كالقنفذ من النّبل؛ فرجعتُ إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأخبرتُه بما جرى بيني وبينها، وما قلتُ وما قالت.

فقال عليه السلام: «هي امرأة، والنساء ضعاف العقول، تولَّ أمرها واحملها إلى دار

---

١ . أنظر كتاب الجمل، للشيخ المفيد ٣٦٩، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٩، ٣٨٢ ؛ أمالي الشيخ المفيد، المجلس: ٣١ حديث:٣...

بني خلف، حتى ننظر في أمرها».

فحملتُها إلى الموضع، وإنّ لسانها لا يفترُ عن السبِّ لي ولعليعليه السلام، والترحم على أصحاب الجمل.

وفي خبر: تقدم محمد بن أبي بكر، فقطع بطان الجمل، وحمل الخدر ومعه أصحابه، وفيه عائشة حتى أنزلوها بعض دور البصرة.

وذكر القرطبي:... ولكن جرت مطاعنات وجراحات حتى كاد يفنى الفريقان، فعمد بعضهم إلى الجمل فعرقبه، فلما سقط الجمل لجنبه، أدرك محمد بن أبي بكر عائشة رضي الله تعالى عنها، فاحتملها إلى البصرة، وخرجت في ثلاثين امرأة، قَرَنَهُنَّ عليٌّ بها حتى أوصلوها إلى المدينة..

وفي قول: عندما أقبل الليل أدخلها البصرة وأنزلها دار عبدالله بن خلف الخزاعي، ضيفة عند صفية بنت الحرث بن أبي طلحة، ثم أعادها الإمام عليعليه السلام إلى المدينة المنورة برفقة أخيها محمد، مع أربعين امرأة متنكرات بزيّ ثياب الرجال حرساً لها...[1]

معركة صفين:

وشهد مع الإمام هذه المعركة ضد جيش الشام، بقيادة معاوية بن أبي سفيان...

ومما كان يتغنى به غلام على قعود له:

حُكيم وعمار الشجا ومحمدٌ وأشترُ والمكشوحُ جروا الدواهيا

---

١ . أنظر في هذا، المصادر في هامش الصفحة:٣٧١ من كتاب الجمل، للشيخ المفيد ؛ وصفحة: ٣٧٦ عن الواقدي ؛ والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي١٤: ١٨٢ في تفسير قوله تعالى: ﴿**وقرن في بيوتكن...**﴾: ٣٣ من سورة الأحزاب ؛ والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني٣:٣٢٨ ؛ والكامل في التاريخ، ابن الأثير ٣:١٣٢.

حكيم بهيئة التصغير هو ابن جبلة بن حصن العبدي، وعمار هو عمار بن ياسر الصحابي، ومحمد هو ابن أبي بكر، والأشتر، هو لقب مالك بن الحارث الشاعر التابعي، والمكشوح، هو المرادي، وقد اختلف في اسمه..[1]

وقد ذكر صاحب كتاب وقعة صفين ما دار بين محمد بن أبي بكر ومعاوية، عبر ما كتبه الأول:

وكتب محمد بن أبي بكر إلى معاوية:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن أبي بكر إلى الغاوي بن صخر.

سلام على أهل طاعة الله، ممن هو مسلم لأهل ولاية الله.

أما بعد، فإن الله بجلاله، وعظمته، وسلطانه، وقدرته، خلق خلقاً بلا عنت، ولا ضعف في قوته، ولا حاجة به إلى خلقهم، ولكنه خلقهم عبيداً، وجعل منهم شقياً وسعيداً، وغوياً ورشيداً، ثم اختارهم على علمه، فأصطفى وانتخب منهم محمداً صلى الله عليه وآله، فاختصه برسالته، واختاره لوحيه، وائتمنه على أمره، وبعثه رسولاً مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ودليلاً على الشرائع، فدعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، فكان أول من أجاب وأناب، وصدق ووافق، وأسلم وسلم؛ أخوه وابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام، فصدقه بالغيب المكتوم، وآثره على كل حميم، فوقاه كل هول، وواساه بنفسه في كل خوف، فحارب حربه، وسالم سلمه، فلم يبرح مبتذلاً لنفسه في ساعات الأزل، ومقامات الروع، حتى برز سابقاً لا نظير له في جهاده، ولا مقارب له في فعله.

١ . أنظر وقعة صفين، لنصر بن مزاحم : ٥٤ وهامش الصفحة ومصادره.

وقد رأيتك تســـاميه وأنت أنت. وهو هو؛ المبرز الســـابق في كل خير، أول الناس إسلاماً، وأصدق الناس نيةً، وأطيب الناس ذريةً، وأفضل الناس زوجةً، وخير الناس ابن عم، وأنت اللعين ابن اللعين.

ثـــم لم تزل أنت وأبوك تبغيان الغوائل لديـــن الله، وتجهدان على إطفاء نـــور الله، وتجمعان علـــى ذلك الجموع، وتبذلان فيه المـــال، وتخالفان فيه القبائـــل، على ذلك مات أبوك، وعلى ذلك خلفته، والشـــاهد عليك بذلك من يأوي ويلجأ إليك من بقية الأحزاب، ورؤوس النفاق والشـــقاق لرسول الله صلى الله عليه وآله، والشاهد لعلي مع فضله المبين، وسبقه القديم، أنصاره الذين ذكروا بفضلهم في القرآن، فأثنى الله عليهم من المهاجرين والأنصار، فهم معه عصائب وكتائب حوله، يجالدون بأســـيافهم، ويهريقون دماءهم دونه، يرون الفضل في اتباعه، والشقاء في خلافه.

فكيف ـ يا لك الويل ـ تعدل نفسك بعليّ، وهو وارث رسول الله صلى الله عليه وآلـــه، ووصيه، وأبو ولده، وأول الناس له اتباعاً، وآخرهم به عهداً، يخبره بسره، ويشركه في أمره؛ وأنت عدوه وابن عدوه؟!

فتمتع ما اســـتطعت بباطلك، وليمدد لك ابـــن العاص في غوايتك، فكأن أجلك قد انقضى، وكيدك قد وهي، وسوف يستبين لمن تكون العاقبة العليا.

واعلم أنـــك [إنما] تكايد ربك الذي قد أمنت كيده، وأيســـت من روحه، وهو لك بالمرصاد، وأنت منه في غرور، وبالله وأهل رســـوله عنك الغناء، والسلام على من اتبع الهدى.

فكتب إليه معاوية:

بسم الله الرحمن الرحيم

من معاوية بن أبي سـفيان، إلى الزاري علـى أبيه محمد بن أبي بكر. سـلام على أهل طاعة الله. أما بعد فقد أتاني كتابـك، تذكر فيه ما الله أهله في قدرته وسـلطانه، وما أصفى به نبيـه، مع كلام ألفته ووضعته، لرأيك فيه تضعيف، ولأبيك فيه تعنيف. ذكرت حق ابن أبي طالب، وقديم سوابقه وقرابتـه من نبي الله صلـى الله عليه، ونصرته له، ومواسـاته إياه في كل خوف وهول، واحتجاجك عليَّ بفضل غيرك لا بفضلك. فأحمد إلهاً صرف الفضل عنك وجعله لغيرك. وقد كنا وأبوك معنا في حياة من نبينا صلى الله عليه، نرى حق ابن أبي طالب لازماً لنا، وفضله مبرزاً علينا.

فلما اختار الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ما عنده، وأتم له ما وعده، وأظهر دعوته، وأفلج حجتـه، قبضه الله إليه، فكان أبـوك وفاروقه أولَ من ابتزه وخالفه، على ذلك اتفقا واتسـقا، ثم دعواه إلى أنفسهم، فأبطأ عنهما، وتلكأ عليهما، فهما به الهموم، وأرادا به العظيم، فبايع وسلم لهما، لا يشركانه في أمرهما، ولا يطلعانه على سرهما، حتى قبضا وانقضى أمرهما.

ثم قام بعدهما ثالثهما عثمان بن عفان، يهتدي بهديهما، ويسير بسيرتهما، فعبتـه أنت وصاحبك، حتى طمع فيه الأقاصي من أهل المعاصي، وبطنتما له وأظهرتما، [وكشفتما] عداوتكما وغلكما، حتى بلغتما منه مناكما.

فخذ حذرك يا ابن أبي بكر، فسـترى وبال أمرك، وقس شبرك بفترك، تقصر عن أن تسـاوي أو توازي من يزن الجبـال حلمه، [و] لا تلين على قسـر قناته، ولا يدرك ذو مدى أناته، أبوك مهد مهاده، وبني ملكه وشاده،

فــإن يكن ما نحن فيه صواباً، فأبوك أوله، وإن يك جوراً فأبوك أســسـه، ونحن شركاؤه، وبهديه أخذنا، وبفعله اقتدينا.

ولولا ما ســبقنا إليه أبوك، ما خالفنا ابن أبي طالب وأســلمنا له، ولكنا رأينــا أباك فعل ذلك فاحتذينا بمثاله، واقتدينا بفعاله، فعب أباك ما بدا لك، أو دع، والسلام على من أناب ورجع عن غوايته وتاب.[1]

ولاية مصر:

وصار محمد أميراً لمصر، بعد أن كانت لمحمد بن أبي بكر محبةٌ في القلوب عند كثير من أهلها؛ لما سمعوا عنه من عدائه الشديد للظلم والظالمين، ووجدوا فيه بغضاً للفساد والفاسدين، وحباً للعدل والبرِّ والمعروف، وبالذات عند الثائرين على الفساد، الذي استشرى يومذاك حتى أنّ واحداً من أهم مطالبهم من الخليفة عثمان أن يعزل أخاه من الرضاعة عبدالله بن أبي سرح عن ولاية مصر، وتعيين محمد بن أبي بكر مكانه..

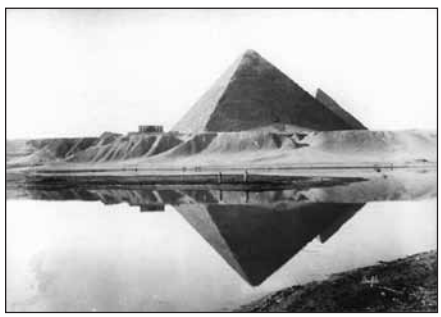

ومما يذكره الدكتور طه حسين عن طمع أقرباء الخليفة في مصر التالي: «ولكن العام الأول من ولاية عثمان لم يكد

١ . أنظر وقعة صفين: ١١٨ـ١٢١ ؛ الاحتجاج ١ : ٢٦٩ ؛ مروج الذهب، للمسعودي، تحقيق محمد محي الدين ٣ : ٢٠.

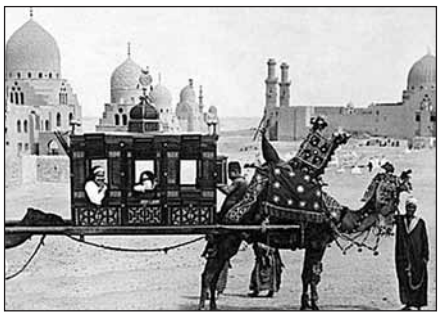

ينقضي حتى جعلت قرابة عثمان تنظر إلى مصر نظرةً لا تخلو من طمع فيها، وطموح إليها.. والشيء البين من أحاديث الرواة هو أنّ عثمان كان يرشح عبدالله بن سعد بن أبي سرح أخاه من الرضاعة لأمر عظيم... وأرسل إلى إفريقية جيشاً.. أمّر عثمان على هذا الجيش عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وقال له: إن فتحت عليك إفريقية، فلك خمس الخمس من الغنيمة.. وقد أتيح لابن أبي سرح فتح إفريقية.. وأخذ لنفسه خمس الخمس، وقيل: إنّ مروان بن الحكم اشترى خمس الخمس بمائة ألف دينارأو مائتي ألف... ثم يقول: ولم يكن عبدالله بن سعد بن أبي سرح رجل صدق، ولم يكن المسلمون يرضون عنه، فقد كان من الذين اشتدوا على النبي وأسرفوا في السخرية منه، وقد نزل القرآن بكفره وذمه، فقد كان عبدالله يقول ساخراً من القرآن: سأنزل مثل ما أنزل الله، وقد أهدر النبيﷺ دم

عبدالله بن سعد بن أبي سرح يوم الفتح...[1]

ومن هذا يتبين أنّ الخليفة كان يرشح أخاه لأمر عظيم، وهو ولاية مصر، وقد انتزعها من عمرو بن العاص، ووضعها في عهدة أخيه المذكور...

فهكذا بلد هو مطمع لبني أمية وخاصة لمعاوية بن أبي سفيان، العدو اللدود للإمام عليعليه السلام ومبادئه، ودولته، ورجاله، وأتباعه، يحتاج إلى قائد ووالٍ ذي حنكة ووعي وجدير بتحمل المسؤولية فيه، فجاء اختيار محمد بن أبي بكر خلفاً لقيس بن سعد الأنصاري.[2]

فقد عيّن الإمامعليه السلام محمد بن أبي بكر والياً على مصر، التي دخلها في الخامس عشر من شهر رمضان سنة٣٧ هجرية، ومصر يومذاك هي أكبر حاضرة من حواضر الإسلام أرضاً وسعةً وسكاناً..، وقد اختلف فيمن ولاه الإمامعليه السلام، فهناك من يقول: كان مالك الأشتر هو من كلفه الإمام بولاية مصر أولاً، لكنه وقبل أن يصلها استشهد، ثم جاء أمره الثاني بتولية محمد بن أبي بكر، فقد ذكر صاحب الاستيعاب أنّ علي بن أبي طالب ولى في هذه السنة (٣٨ هجرية) مالك بن الحارث الأشتر النخعي مصر، فمات بالقلزم قبل أن يصل إليها، سم في زبد وعسل، قدم بين يديه فأكل منه فمات، فولى عليعليه السلام محمد بن أبي بكر...[3]

وفي النجوم الزاهرة جاء التالي: وفي ولاية الأشتر هذا على مصر قبل محمد بن أبي بكر الصديق اختلاف كثير؛ حكى جماعة كثيرة من المؤرخين، وذكروا ما يدل على أنّ ولاية محمد بن أبي بكر كانت هي السابقة بعد عزل قيس بن سعد بن عبادة، وجماعة قدموا ولاية الأشتر هذا، ولكل منهما استدلال قوي؛ والذين قدموا

---

١ . الفتنة الكبرى، للدكتور طه حسين: ١٢٢، ١٢٤ ـ عثمان.

٢ . أنظر ترجمة قيس بن سعد الأنصاري في العدد:٣٢ من مجلة ميقات الحج.

٣ . الاستيعاب، لابن عبد البر١ : ٤٢٥، محمد بن أبي بكر...

الأشترهم الأكثر، وقد رأيت في عدة كتب ولاية الأشتر هي المقدمة فقدمته لذلك. والأشتر اسمه مالك بن الحارث؛ قال أبو المظفر في مرآة الزمان: قال علماء السيرة كابن إسحاق وهشام والواقدي قالوا: لما اختل أمر مصر على محمد ابن أبي بكر الصديق، وبلغ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: ما لمصر إلا أحد الرجلين، صاحبنا الذي عزلناه عنها ـ يعني قيس بن سعد بن عبادة ـ أو مالك بن الحارث يعني الأشتر هذا.

قلت: وهذا مما يدل على أنّ ولاية محمد بن أبي بكر الصديق كانت هي السابقة؛ أللهم إلاّ إن كان لما اختل أمر مصر على محمد عزله علي ـ رضي الله عنه ـ بالأشتر، ثم استمر محمد ثانياً بعد موت الأشتر على عمله حتى وقع من أمره ما سنذكره؛ وهذا هو أقرب للجمع بين الأقوال، لأن الأشتر توفي قبل دخوله إلى مصر، والله أعلم.[1]

هذا، وقد تألم محمد بن أبي بكر، وتكدر مما سمعه من إبداله بالأشتر، حتى ذكر في نهج البلاغة أنّ الإمام عليه السلام وجه كتاباً إليه حين بلغه توجده من عزله بالأشتر عن مصر، الذي توفي قبل وصوله إليها.

«أما بعد فقد بلغني موجدتك من تسريح الأشتر إلى عملك، وإني لم أفعل ذلك استبطاءً لك في الجهد، ولا ازدياداً في الجد، ولو نزعتُ ما تحت يدك من سلطانك، لوليتك ما هو أيسر عليك مؤونةً، وأعجب إليك ولايةً.

إنّ الرجل الذي كنت وليته أمر مصر كان لنا رجلاً ناصحاً، وعلى عدونا شديداً ناقماً. فرحمه الله! فلقد استكمل أيامه، ولاقى حمامه، ونحن عنه راضون. أولاه الله رضوانه، وضاعف الثواب له، فأصحر لعدوك، وامض على بصيرتك، وشمّر لحرب من حاربك، وادع إلى سبيل ربك، وأكثر الاستعانة

١ . أنظر كتاب النجوم الزاهرة، لابن تغري بردي:٤١.

بالله يكفك ما أهمّك، ويُعنك على ما نزل بك، إن شاء الله».[1]

هذا، ومما جاء في عهده عليه السلام لمحمد حين ولاه بلاد مصر قوله:

«فاخفض لهم جناحك، وألن لهم جانبك، وابسط لهم وجهك، وآس بينهم في اللحظة والنظرة، حتى لا يطمع العظماء في حيفك لهم، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم، فإنّ الله تعالى يُسائلكم معشر عباده عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة، والظاهرة والمستورة، فإن يُعذب فأنتم أظلم، وإن يعفُ فهو أكرم...».

وبعد أن ذكر أهل مصر بل عباد الله جميعاً بمقطع من عهده المذكور، والذي بدأه بقوله:

«واعلموا عباد الله أن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة...» واصل عليه السلام عهده لمحمد قائلاً: «واعلم يا محمد بن أبي بكر، أنّي قد وليتك أعظم أجنادي في نفسي أهل مصر، فأنت محقوق أن تُخالف على نفسك، وأن تُنافح عن دينك، ولو لم يكن لك إلا ساعة من الدهر، ولا تسخط الله برضى أحد من خلقه، فإنّ في الله خلفاً من غيره، وليس من الله خلفٌ في غيره».

كما راح عليه السلام يوصيه بالصلاة قائلاً:

«صلِّ الصلاة لوقتها المؤقت لها، ولا تُعجل وقتها لفراغ، ولا تؤخرها عن وقتها لاشتغال. واعلم أنّ كل شيء من عملك تَبعٌ لصلاتك...».[2]

هذا، وأن محمداً حين قدم لاستلام ولاية مصر، قرأ على أهلها عهد الإمام علي عليه السلام إليه، وقد كتبه عبيد الله بن أبي رافع، مولى رسول الله صلى الله عليه وآله لغرة شهر رمضان، سنة ست وثلاثين، فقد جاء في كتاب تحف العقول:

---

١ . نهج البلاغة، صبحي الصالح: ٤٠٧ ، رقم ٣٤.

٢ . نهج البلاغة، صبحي الصالح:٣٨٣ ، رقم ٢٧ من عهده عليه السلام حين قلّده مصر.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عهد عبدالله علي أمير المؤمنين إلى محمد بن أبي بكر حين ولاه مصر، أمره بتقوى الله في السر والعلانية، وخوف الله في المغيب والمشهد، وباللين للمسلم، وبالغلظة على الفاجر، وبالعدل على أهل الذمة، وبالإنصاف للمظلوم، وبالشدة على الظالم، وبالعفو عن الناس، وبالإحسان ما استطاع، والله يجزي المحسنين. وأمره أن يدعو من قبله إلى الطاعة والجماعة، فإنّ لهم في ذلك من العاقبة، وعظيم المثوبة، ما لايقدرون قدره، ولايعرفون كنهه.

وأمره أن يجبي خراج الأرض على ماكانت تجبى عليه من قبل، ولا ينتقص منه، ولا يبتدع فيه، ثم يقسمه بين أهله كما كانوا يقسمونه عليه من قبل. وأمره أن يلين لهم جناحه، وأن يساوي بينهم في مجلسه ووجهه، وليكن القريب والبعيد عنده في الحق سواء.

وأمره أن يحكم بين الناس بالحق، وأن يقوم بالقسط، ولا يتبع الهوى، ولا يخاف في الله لومة لائم، فإنّ الله مع من اتقاه وآثر طاعته على ما سواه، والسلام.

ثم إنّ محمد بن أبي بكر قام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه وقال: أما بعد فالحمد لله الذي هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق، وبصرنا وإياكم كثيراً مما عميَ عنه الجاهلون.

ألا إنّ أمير المؤمنين ولاني أموركم، وعهد إليّ بما سمعتم، وأوصاني بكثير منه مشافهة، ولن آلوكم خيراً ما استطعت، وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب. فإن يكن ما ترون من آثاري و أعمالي لله طاعة وتقوى، فاحمدوا الله على ما كان من ذلك، فإنه هو الهادي له، وإن رأيتم من ذلك عملاً بغير حق، فادفعوه إليَّ وعاتبوني عليه، فإني بذلك أسعد، وأنتم بذلك جديرون، وفقنا الله

وإياكم لصالح العمل برحمته؛ ثم نزل.[1]

أسئلته:

ذكروا أنَّ محمد بن أبي بكر وهو إذ ذاك بمصر، كان يكثر من إرسال أسئلته للإمام علي عليه السلام، فقد كان يسأله جوامع من الحرام والحلال والسنن والمواعظ.. ومنها:

«لعبدالله أمير المؤمنين، من محمد بن أبي بكر: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإن رأى أمير المؤمنين أرانا الله وجماعة المسلمين فيه أفضل سرورنا وأملنا فيه، أن يكتب لنا كتاباً فيه فرائض وأشياء مما يبتلى به مثلي من القضاء بين الناس، فإنّ الله يعظم لأمير المؤمنين الأجر، ويحسن له الذخر.

فكتب إليه علي عليه السلام:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى محمد بن أبي بكر وأهل مصر

سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فقد وصل إليّ كتابك فقرأته وفهمت ما سألتني عنه، وأعجبني اهتمامك بما لا بد لك منه، وما لايصلح المسلمين غيره، وظننت أنّ الذي دلك عليه نية صالحة، ورأي غير مدخول ولا خسيس. وقد بعثت إليك أبواب الأقضية جامعاً لك فيها، ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وكتب إليه عما سأله من القضاء، وذكر الموت والحساب، وصفة الجنة

١ . أنظر نهج البلاغة٣ : ٢٧ ؛ ومنهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، للخوئي١٩ : ٧٣، عن أبي إسحاق الهمداني.

والنـــار، وكتب في الإمامة، وكتـــب في الوضوء، وكتب إليـــه في مواقيت الصلاة، وكتب إليه في الركوع والسجود، وكتب إليه في الأدب، وكتب إليه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكتب إليه في الصوم والاعتكاف، وكتب إليه في الزنادقة، وكتب إليه في نصراني فجر بامرأة مسلمة، وكتب إليه في أشياء كثيرة لم يحفظ منها غير هذه الخصال،...

قـــال إبراهيم: فحدثنا يحيى بن صالح... عن عباية، أنّ علياً عليه السلام كتب إلى محمد بن أبي بكر، وأهل مصر:

«أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلانيته، وعلى أي حال كنـــت عليها، واعلم أنّ الدنيا دار بـــلاء وفناء، والآخرة دار بقاء وجزاء، فإن استطعت أن تؤثر ما يبقى على ما يفنى فافعل، فإنّ الآخرة تبقى، وإنّ الدنيا تفنى، رزقنا الله وإياك بصراً لما بصرنا، وفهماً لما فهمنا، حتى لا نقصر عما أمرَنـــا به، ولا نتعدى إلى ما نهانا عنه، فإنه لا بدّ لك من نصيبك من الدنيا، وأنـــت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فإن عرض لك أمران أحدهما للآخرة والآخر للدنيا، فابدأ بأمر الآخرة.

ولتعظم رغبتك في الخير، ولتحســـن فيه نيتـــك، فإنّ الله عزّوجلّ يعطي العبد على قدر نيته، وإذا أحب الخير وأهله ولم يعمله، كان إن شاء الله كمن عمله، فإنّ رســـول الله صلى الله عليه وآله قال حين رجع من تبوك: لقد كان بالمدينة أقوام ما ســـرتم من مســـير، ولا هبطتم من واد، إلا كانوا معكم. ما حبســـهم إلا المرض ـ يقول: كانت لهم نية ـ ثم اعلم يا محمد، أني وليتك أعظم أجنادي في نفسي: أهل مصر، وإذ وليتك ما وليتك من أمر الناس، فأنت محقوق أن تخاف فيه على نفسك، وتحذر فيه على دينك، ولو كان ساعة من نهار، فإن

استطعت أن لا تسـخط فيها ربك لرضى أحد من خلقه فافعل، فإنّ في الله خلفاً من غيره، وليس في شـئ غيره خلف منه، فاشـتد على الظالم، ولِنْ لأهل الخير، وقربهم إليك، واجعلهم بطانتك، وإخوانك. والسلام».

وكتب إلى علي عليه السلام يسـأله عن رجل مسلم فجر بامرأة نصرانية، وعن زنادقة فيهم من يعبد الشـمس والقمر، وفيهم مـن يعبد غير ذلك، وفيهم مرتد عن الإسلام، وكتب يسأله من مُكاتب مات، وترك مالاً وولداً..

فكتب إليه علي عليه السلام: «أن أقم الحدَّ فيهم على المسلم الذي فجر بالنصرانية، وادفع النصرانية إلى النصارى يقضون فيها ما شاؤوا».

وأمره في الزنادقة أن يقتل من كان يدعي الإسـلام، ويترك سـائرهم يعبدون ما شـاؤوا، وأمـره في المكاتب إن كان ترك وفـاء لمكاتبته فهو غريـم بيد مواليه، يسـتوفون ما بقي من مكاتبته، ومـا بقي فلولده. إذن، فأسـئلة محمد كانت عديدة أو كثيرة، وأجوبة الإمـام عليه السلام وكتبه إليه هي الأخرى كثيرة، ولهذا فقد شكلت ثروة علمية وفقهية..

وإذا بكتبه هذه في يد معاوية:

فقد ذكروا أنّ فيما استولى عليه عمرو بن العاص بعد استشهاد محمد بن أبي بكر، كان الكتب التي كتبها علي عليه السلام إليه، ثمّ أرسلها عمرو إلى معاوية.

قال إبراهيم: حدثني عبدالله بن محمد بن عثمان، عن علي بن محمد بن أبي سيف، عن أصحابه، أنّ علياً عليه السلام لما أجاب محمد بن أبي بكر بهذا الجواب، كان ينظر فيه ويتعلمه ويقضي به، فلما ظهر عليه وقتل، أخذ عمرو بن العاص كتبه أجمع، فبعث بها إلى معاوية بن أبي سفيان.

يعجب معاوية من علم علي وقضائه:

إذن فهي كتب ورسائل عديدة تقع بين يدي معاوية، عثر عليها أعداء محمد بن أبي بكر بعد استشهاده، كان يوجهها الإمام عليه السلام إليه، وهي مما استولى عليه عمرو بن العاص، وأرسلها الى معاوية. فقد جاء في الخبر ذكر: « فلما ظهر عليه وقتل، أخذ عمرو بن العاص كتبه أجمع، فبعث بها إلى معاوية بن أبي سفيان، وكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويعجبه».

فقال الوليد بن عقبة ـ وهو عند معاوية، لما رأى إعجاب معاوية به ـ : مُرْ بهذه الأحاديث أن تحرق. فقال له معاوية: مه يا ابن أبي معيط، إنه لا رأي لك!

فقال له الوليد: إنه لا رأي لك، أفمن الرأي أن يعلم الناس أنّ أحاديث أبي تراب عندك، تتعلم منها وتقضي بقضائه، فعلام تقاتله؟!

فقال معاوية: ويحك، أتأمرني أن أحرق علماً مثل هذا! والله ما سمعت بعلم أجمع منه، ولا أحكم، ولا أوضح.

فقال الوليد: إن كنت تعجب من علمه وقضائه، فعلامَ تقاتله؟

فقال معاوية: ويحك، أتأمرني أن أحرق علماً مثل هذا! والله ما سمعت بعلم أجمع منه، ولا أحكم، ولا أوضح!

فقال الوليد: إن كنت تعجب من علمه وقضائه، فعلامَ تقاتله؟

فقال معاوية: لولا أنّ أبا تراب قتل عثمان، ثم أفتانا لأخذنا عنه!

ثم سكت هنيئة، ثم نظر إلى جلسائه، فقال: إنا لا نقول: إنّ هذه من كتب علي بن أبي طالب، ولكنا نقول: إنّ هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمد، فنحن نقضي بها ونفتي.

فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني أمية، حتى وليَ عمر بن عبد العزيز، فهو الذي أظهر أنها من أحاديث علي بن أبي طالب عليه السلام.

عن عبدالله بن سلمة قال: صلى بنا عليعليه السلام فلما انصرف قال:

لقد عثرتُ عثرةً لا أعتذرْ

سوف أَكِيسُ بعدها وأستمرْ

وأجمع الأمر الشَّتيتَ المنتشر

قلنا: ما بالك يا أمير المؤمنين سمعنا منك كذا؟!

قال: «إني استعملت محمد بن أبي بكر على مصر، فزعم أنه لا علم له بالسنة، فكتبت إليه كتاباً فيه السنة، فقتل وأخذ الكتاب».[1]

اضطراب الأمر عليه:

في البداية نذكر ما قاله صاحب كتاب الغارات عن مالك بن الجون الحضرمي، أنّ عليعليه السلام قال: «رحم الله محمداً، كان غلاماً حدثاً، أما والله لقد كنت أردت أن أولِّي المرقال هاشم بن عتبة بن أبي وقاص مصر، والله لو أنه وليها لما خلى لعمرو بن العاص وأعوانه العرصة، ولما قتل إلا وسيفه في يده، بلا ذم لمحمد، فلقد أجهد نفسه، وقضى ما عليه».[2]

وهذا يعني أنّ محمداً كما يصفه الإمام بأنه: «كان غلاماً حدثاً» ومع هذا: «فلقد أجهد نفسه وقضى ما عليه».

وهذا يعني أنّ الأحداث، التي ابتلى بها هذا الشاب كانت كبيرةً عليه، ومن هنا قال الإمام: «بلا ذم لمحمد». فرغم خطورة تلك المؤامرة التي فوجئ بها، وبالحرب التي أعدها معاوية وعمرو بن العاص، وعظيم عدتها وشدتها..، إلاّ أنه بذل كل ما توفر عليه من قوة وخبرة، حتى استشهد.. ولعلّ غيره من

---

١ . الغارات١ : ٢٥٢. أنظر هذا العهد مفصلاً في الغارات، لأبي هلال الثقفي١ : ١٤٤ـ١٦٣، وضمنها هذا العنوان: إعجاب معاوية بهذا العهد لمّا وصل إليه.

٢ . كتاب الغارات، للعلامة إبراهيم بن محمد الثقفي١ : ١٩٩.

القادة كالمرقال ومالك، أكثر منه خبرة بأمور الحرب، وبالتالي يكون مثل هؤلاء القادة أعظم شدةً على أعدائهم، وقد تتغيّر نتيجة المعركة.. وهي أمنية تحدّث عنها الإمام عليه السلام بعد أن تكاملت عنده أخبار تلك المعركة، وما أعدّه الآخرون لها.. ولا ندري ما الذي حال دون تنفيذ إرادته عليه السلام في توليته المرقال هاشم بن عتبة لمصر؟!

هذا، وقد جاء في كتاب وجهه الإمام لمالك: «وكنت قد وليت محمد بن أبي بكر مصر، فخرجت عليه خوارج، وهو غلام حدث السن، ليس بذي تجربة للحروب، ولامجرباً للأشياء».

وما يظهر هو أنّ الإمام عليه السلام فعلاً قد عيّن مالك الأشتر لولاية مصر في خضمِّ هذه الأحداث أو قبيلها بقليل، بعد ورود الأخبار عما يكيده معاوية وعمرو بن العاص لمصر، وما حصل له في داخل مصر «فخرجت عليه خوارج»، ولتغيّر الحال لولا استشهاده بمكيدة من معاوية، الذي أسرع فيها؛ لمعرفته بمالك الأشتر وقدراته، إذا ما استلم ولاية مصر وقيادة الجند فيها.. وهو ما يستفاد من كتابه في النهج والمعنون:

إلى محمد بن أبي بكر، لما بلغه توجّده من عزله بالأشتر عن مصر، ثم توفي الأشتر في توجهه إلى مصر قبل وصوله إليها، وقد ذكرنا ذلك أعلاه.

وأيضاً بما بذله الإمام عليه السلام بدعوة أتباعه للالتحاق به؛ لتلافي ما قد يحصل في مصر، إلا أنهم تخاذلوا، وهو ما سيأتي ذكره من تاريخ الطبري...

وكل هذا يبيّن أن ما يواجهه محمد كان أحداثاً كبيرة، واضطرابات جسيمة، ومثيري الفتن والمتآمرين لحساب معاوية، وبمجموعها قد تكون قدرته عليها ليست كافية، وهو ما أدركه الإمام عليه السلام، فراح يعدّ العدة لإعانته مرةً باختيار مالك بقدراته وخبراته لمواجهتها، وأخرى بدعوته لإمداده بالعدة والعدد،

وهذا كلامه عليه السلام لابن عباس:

«... وقد كنت حثثت الناس على لحاقه، وأمرتهم بغياثه قبل الوقعة، ودعوتهم سراً وجهراً وعوداً وبدءاً، فمنهم الآتي كارهاً، ومنهم المعتل كاذباً، ومنهم القاعد خاذلاً، أسأل الله أن يجعل لي منهم فرجاً عاجلاً، فوالله لولا طمعي عند لقائي عدوي في الشهادة، وتوطيني نفسي على المنية؛ لأحببت أن لا أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً، ولا ألتقي بهم أبداً».[1]

وهو ما يدل لا فقط على قلّة خبرة محمد الحربية لصغر سنّه، بل على ضعف عدّة جنده وعددهم، وعلى ضخامة قدرة عدوه عدداً وعدّةً من داخل مصر ومن خارجها..

فقد جاء في بعض المصادر التاريخية أن محمداً لبث شهراً كاملاً مدبّراً أمور الولاية، حتى بعث إلى قوم من أهالي « خربْتا » البلدة المعارضة لخلافة الإمام علي عليه السلام، فقال لهم محمد بن أبي بكر: «إما أن تدخلوا في طاعتنا، وإمّا أن تخرجوا من بلادنا»، فأجابوه: إنا لا نفعل، فدعنا حتّى ننظر إلى ما يصير إليه أمرنا، فلا تعجل لحربنا. فأبى عليهم، فامتنعوا منه، وأخذوا حذرهم. وكانت وقعة صفين، وهم لمحمد هائبون، فلما رجع علي عليه السلام عن معاوية، وصار الأمر إلى التحكيم، طمعوا به وأظهروا له المبارزة، فأرسل لهم محمد بن الحرث بن جهمان الجعفي ليؤدبهم، فوصل إلى «خربْتا » وكان فيها يزيد بن الحرث مع بني كنانة، ومن معه من قبائل أخرى مختلفة، فقاتلهم الحرث فقتلوه، فأرسل محمد إليهم ابنَ مضاهم الكلبي فقتلوه كذلك. وكان محمد قد أصاب منهم غليةً من قبل حين أرسل إليهم عمرو بن بديل بن الورقاء الخزاعي. ولكن

١ . من كتابه٧ لعبدالله بن عباس، بعد مقتل محمد بن أبي بكر. نهج البلاغة، د. صبحي الصالح: ٤٠٨ رقم ٣٥.

الذي غيّر الأمور هو إرسال معاوية عمرو بن العاص في جيش كثيف إلى مصر بعد توجه الإمام عليّ عليه السلام إلى العراق.

ولما بلغ الإمام عليّاً عليه السلام اضطرابُ الأمر في ولاية مصر، وتوقع استغلال ذلك من قبل معاوية، عمد عليه السلام إلى إرسال مالك؛ لتسلم زمام القيادة من محمد بن أبي بكر، ولحسم الصراع الدائر هناك، وقبل أن تستشري الفتنة، ولكن معاوية استطاع بحيلة منه أن يدسّ السم للوالي الجديد، وهو في طريقه إلى تسلم ولايته، مستعيناً بأحد رجال الخراج في مكان يقال له القلزم وهو السويس حالياً، فشرب الأشتر وهو لا يشك في مضيّفه، شربة ماء ممزوجة بالسم والعسل فاستُشهِد، وبذلك أضحى محمد بن أبي بكر وجهاً لوجه مع اثنين من الدهاة، معاوية وعمرو بن العاص، الذي أقبل قاصداً مصر باتجاه محمد بن أبي بكر..

صريخُ محمد بن أبي بكر:

و ذكر أبو جعفر الطبري في تاريخه:

قال هشام، عن أبي مخنف قال: وحدّثني الحارث بن كعب بن فُقيم، عن جندب، عن عبدالله بن فُقيم عمّ الحارث بن كعب، قدم الكوفة يستصرخ من قبل محمد بن أبي بكر إلى علي عليه السلام، ومحمد يومئذ أميرهم «على مصر» فقام علي عليه السلام في الناس، وقد أمر فنودي: الصلاة جامعة!

فاجتمع الناس، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على محمّد صلى الله عليه وآله، ثمّ قال:

«أمّا بعد، فإنّ هذا صريخُ محمد بن أبي بكر، وإخوانكم من أهل مصر، قد سار إليهم ابن النابغة (عمرو بن العاص) عدوّ الله، ووليّ من عادى الله، فلا

يكوننّ أهل الضلال إلى باطلهم والركون إلى سبيل الطاغوت أشد اجتماعاً منكم على حقّكم هذا، فإنّهم قد بدؤوكم وإخوانكم بالغزو، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنصر؛ عباد الله، إنّ مصر أعظم من الشام، أكثر خيراً، وخيرٌ أهلاً، فلا تُغلبوا على مصر، فإنّ بقاء مصر في أيديكم عزّ لكم، وكبتٌ لعدوّكم، اخرجوا إلى الجرعة بين الحيرة والكوفة، فوافوني بها هناك غداً إن شاء الله».

قال: فلمّا كان من الغد خرج يمشي، فنزلها بكرةً، فأقام بها حتّى انتصف النهار في يومه ذلك، فلم يوافه منهم رجل واحد فرجع، فلمّا كان من العشيّ بعث إلى أشراف الناس، فدخلوا عليه وهو حزين كئيب، فقال:

«ألحمد لله على ما مضى من أمري، وقدّر من فِعلي، وابتلاني بكم أيّتها الفرقة ممّن لا يطيع إذا أمرتُ، ولا يُجيب إذا دعوتُ، لا أباً لغيركم! ماتنظرون بصبركم، والجهاد على حقّكم! الموت والذلّ لكم في هذه الدنيا على غير الحقّ! فوالله لئن جاء الموت ـ وليأتين ـ ليفرقنّ بيني وبينكم وأنا لصحبتكم قال، وبكم غير ضنين، للهِ أنتم! لا دين يجمعكم، ولا حميّة تحميكم، إذ أنتم سمعتم بعدوّكم يَرِدُ بلادكم، ويشنّ الغارة عليكم، أو ليس عجباً أنّ معاوية يدعو الجفاة الطغاة، فيتبعونه على غير عطاء ولا معونة، ويجيبونه في السنة المرّتين والثلاث إلى أيّ وجه شاء، وأنا أدعوكم ـ وأنتم أُولُوا النهى وبقيّة الناس ـ على المعونة، وطائفة منكم على العطاء، فتقومون عنّي وتعصونني، وتختلفون عليَّ؟».

فقام إليه مالك بن كعب الهمداني، فقال: يا أميرالمؤمنين، اندب الناس فإنّه لا عطر بعد عروس، لمثل هذا اليوم كنت أدّخر نفسي، والأجر لا يأتي إلاّ بالكرّة، اتّقوا الله وأجيبوا إمامكم، وانصروا دعوته، وقاتلوا عدوّه، أنا أسير إليهم يا أمير المؤمنين.

قال: فأمر عليعليه السلام مناديه سعداً، فنادى في الناس: ألا انتدبوا إلى مصر مع مالك بن كعب.

ثمّ خرج عليعليه السلام ومالك بن كعب ومن معهما، فنظر فإذا جميعُ من خرج نحو ألفي رجل، فقال: «سر، فوالله ما أخالك تدرك القوم حتّى ينقضي أمرهم». قال: فخرج بهم مالك بن كعب فسار خمساً...[1]

قصة استشهاده رضوان الله عليه:

وفي رواية الطبري عن أبي مخنف: أقبل عمرو بن العاص حتّى قصد مصر على رأس جيش قوامهُ أربعة آلاف رجل.

فقام محمّد بن أبي بكر، فخطب في الناس، فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله، ثمّ قال: أمّا بعد معاشر المسلمين والمؤمنين، فإنّ القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمة، وينعشون الضلال، ويشبّون نار الفتنة، ويتسلّطون بالجبريّة، قد نصبوا لكم العداوة، وساروا إليكم بالجنود، عباد الله! فمن أراد الجنّة والمغفرة، فليخرج إلى هؤلاء القوم فليجاهدهم في الله، انتدبوا إلى هؤلاء القوم رحمكم الله مع كنانة بن بشر، فانتُدب معه ألفا رجل، وخرج محمّد بن أبي بكر في ألف رجل، واستقبل عمرو بن العاص كنانة بن بشر وهو على مقدّمة جيش محمّد بن أبي بكر، فأقبل عمرو بن العاص بجيشه نحو كنانة بن بشر، فلمّا دنا منه وتقاربا، سرح الكتائب كتيبة بعد كتيبة، فجعل كنانة بن بشر لا تأتيه كتيبة من كتائب أهل الشام إلاّ شدّ عليها بمن معه، فيضربها حتّى يقربها لعمرو بن العاص، ففعل ذلك مراراً، فلمّا رأى ذلك عمرو بعث إلى معاوية بن خديج السكوني يستنجده، فأتاه بجيش في الدهم، فأحاط بكنانة بن بشر وجيشه،

١ . تاريخ الطبري، سنة ٣٨.

واجتمع أهل الشام عليهم من كلّ جانب، فلمّا رأى ذلك كنانة بن بشر، نزل من فرسه، ونزل أصحابه، فاشتدّ القتال، وحمي الوطيس، حتّى استشهد كنانة قائد الجيش، وتفرّق جيشه.

وأقبل عمرو بن العاص نحو محمّد بن أبي بكر وجيشه، وقد تفرّق عنه أصحابها لمّا بلغهما قتل كنانة بن بشر، حتّى بقي وحده في الميدان، وما معه أحد من أصحابه، فاضطرّ عند ذلك محمّد بن أبي بكر إلى الانسحاب حتّى انتهى إلى خربة في ناحية الطريق فآوى إليها، ودخل عمرو بن العاص الفسطاط فاتحاً، ومعه قائد جيش معاوية بن خديج السكوني. ثمّ خرج في طلب محمد بن أبي بكر، حتّى انتهى إلى الخربة فقبض عليه، وكاد يموت عطشاً، فاقبلوا به نحو فسطاط مصر، وادخل على عمرو بن العاص، وكان عبد الرحمن بن أبي بكر أخوه حاضراً، فوثب على عمرو بن العاص، وكان من جنده فقال: أكذاك قتلتم كنانة بن بشر (كان قائد جيش محمد بن أبي بكر، والظاهر أنّ كنانة بن بشر كان من قبيلة معاوية بن خديج). واُخلّي أنا عن محمّد بن أبي بكر، هيهات؟!

فقال لهم محمد: اسقوني من الماء، قال له معاوية بن خديج: لا سقاه الله قطرةً أبداً! إنّكم منعتم عثمان أن يشرب الماء حتّى قتلتموه صائماً محرماً، والله لأقتلنّك يابن أبي بكر فيسقيك الله الحميم والغسّاق.

فقال له محمد: يابن اليهوديّة النسّاجة، ليس ذلك إليك وإلى من ذكرت، إنّما إلى الله عزّوجلّ يسقي أولياءه، ويظمىء أعداءه، أنت والله وضرباؤك ومن تولاّه، أما والله لو كان سيفي في يدي ما بلغتم منّي هذا!

قال له معاوية: أتدري ما أصنع بك؟ أدخلك جوف حمار، ثمّ أحرقه عليك بالنار.

فقال له محمد: إن فعلتم بي ذلك، فطالما فُعِل ذلك بأولياء الله! وإنّي لأرجو هذه النار التي تحرقني بها أن يجعلها الله عليَّ برداً وسلاماً كما جعلها على خليله إبراهيم، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كماجعلها على نمرود وأوليائه، إنّ الله يحرقك ومن ذكرته من قبل وإمامك معاوية وهذا، وأشار إلى عمرو بن العاص، بنار تلظى عليكم، كلّما خبت زادها الله سعيراً.

قال له معاوية: إنّما اقتلك بعثمان.

قال له محمد: وما أنت وعثمان؟! إنّ عثمان عمل بالجور، ونبذ حكم القرآن، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَلْيَحْكُم أهلُ الإنْجيلِ بِما أنزلَ اللّهُ فيهِ وَمَن لَمْ يَحْكُم بِما أنزلَ اللّه فَاولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ**﴾[1] وحسَّنت أنت له ذلك ونضراؤك فقد برأنا الله من ذنبه، وأنت شريكه في إثمه وعظم ذنبه، وجاعلك على مثاله.

قال: فغضب معاوية بن خديج، فقدمه فضرب عنقه وقتله صبراً، ثمّ ألقاه في جوف حمار ميّت، ثمّ أحرقه بالنار.

فكتب عمرو بن العاص إلى معاوية بن أبي سفيان بعد قتل محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر، « أما بعد، فإنا لقينا محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر في جموع من أهل مصر، فدعوناهم إلى الكتاب والسنّة، فعصوا الحق، فتهوّلوا في الضلال، فجاهدناهم، واستنصرنا الله جلّ وعز عليهم، فضرب الله وجوههم وأدبارهم، ومنحنا أكتافهم! فقُتل محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر، والحمد لله رب العالمين.[2]

وقال صاحب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي:

١ . المائدة : ٤٧.

٢ . أنظر في هذا كلاً من: تاريخ الطبري٣: ٦٧ـ ٦٨، ٤: ١٣١ـ ١٣٣؛ وابن الأثير، في تاريخه٣ : ١٤٠؛ الكامل في التاريخ٣: ١٣٨ ـ ١٣٩ ؛ أسد الغابة في معرفة الصحابة٥ : ١٠٢ ؛ والولاة والقضاة: ٢٦ ـ ٣١.

أعدم محمد بن أبي بكر حرقاً في جيفة حمار ميت بعد أن وقع في أسر جند معاوية عام ٣٧ هجرية؛ وقيل: إنه قطعت رأسه وأرسلت إلى معاوية بدمشق، وطيف به، وهو أول رأس طيف به في الإسلام.[١]

وأخيراً وصل الإمامَ خبرُاستشهاده:

فقد ختمت حياته رضوان الله تعالى عليه بالشهادة، وكانت قصتها مروعة، كما ذكرت المصادر أعلاه، تدل على حقارة قاتليه وحقدهم، وتدل أيضاً على أنه كان آية في الصمود والتفاني والتضحية، وهو ما تجلّى فيما دار بينه وبين آسريه وقاتليه من حوار، يظهر فيه أنه لم يهن، ولم يضعف، ولم ينكل، ولم يحزن، بل ظلّ ثابتاً شامخاً أبياً، حتى رمقه الأخير.

كان هذا في الخامس عشر من صفر، سنة ٣٨ هجرية، و له من العمر ثمان وعشرون سنة، بعد ولاية دامت خمسة أشهر.

و إتماماً لما ذكره أبو جعفر الطبري في تاريخه، ودوّناه سابقاً حول استصراخ محمد بن أبي بكر، قال: ثمّ إنّ الحجّاج بن غزية الأنصاري والنجاري قدما على عليّ عليه السلام من مصر، فكانا مع محمد بن أبي بكر، وقدِم عبد الرحمن بن شبيب الفزاري من الشام وكان عينه عليها.

فحدّث الأنصاري الإمام عليه السلام بما رأى وعاين هلاك محمد بن أبي بكر، وحدّثه الفزاري أنّه لم يخرج من الشام حتّى قدمت البشراء من قبل عمرو بن العاص تترى، يتبع بعضها بعضاً بفتح مصر، وقتل محمد بن أبي بكر، حتّى أذن وأعلن بقتله على المنبر، وقال: يا أمير المؤمنين، قلّما رأيت قوماً قطّ أسرّ، ولاسروراً قطّ أظهر من سرور رأيته بالشام، حين أتاهم هلاك محمد بن أبي بكر.

---

١ . كتاب النجوم الزاهرة: ٤٥.

ما تركه استشهاده رضوان الله عليه:

لقد ترك قتل محمد بن أبي بكر هذا الشاب المؤمن المجاهد الواعي آثاراً مؤلمة على الإمام علي عليه السلام، ووَجَدَ (حزن) عليه وجْداً عظيماً... نجد هذا فيما ذكره الطبري:

قال الإمام علي عليه السلام: «أما أنّ حُزننا عليه على قدر سرورهم به، لا بل يزيد أضعافاً». قال: وسرّح علي عليه السلام عبد الرحمن بن شريح الشبامي إلى مالك بن كعب، فردّه من الطريق.

قال: وحزن عليٌّ عليه السلام على محمد بن أبي بكر، حتّى رؤي ذلك في وجهه، وتبيّن فيه، وقام في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على رسوله صلى الله عليه وآله وقال:

«ألا أنّ مصر قد افتتحها الفجرة أولوا الجور والظلم، والذين صدّوا عن سبيل الله، وبغوا الإسلام عِوجاً، ألا وإنّ محمّد بن أبي بكر قد استشهد (رحمه الله)، فعند الله نحتسبُه، أما والله إن كان ما علمت لمن ينتظر القضاء، ويعمل للجزاء، ويبغض شكل الفاجر، ويحبّ هدى المؤمن، إنّي والله ما ألوم نفسي على التقصير، وإنّي لمقاساة الحرب لجدّ خبير، وإنّي لأقدم على الأمر وأعرف وجه الحزم، وأقوم فيكم بالرأي المصيب، فاستصرخكم معلناً، وأناديكم نداء المستغيث مُعرِباً، فلاتسمعون لي قولاً ولاتطيعون لي أمراً، حتّى تصير بي الأمور إلى عواقب المساءة، فأنتم القوم لا يدرك بكم الثأر، ولا تنقضي بكم الأوتار؛ دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلةً، فتجرجرتم جرجرة الجمل الأشدق، وتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من ليس له نيّة في جهاد العدوّ، ولا اكتساب الأجر، ثمّ خرج إليَّ منكم جُنيد متذانب، كأنّما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، فأُفٍّ لكم»!

ثمّ نزل من المنبر.

قال أبو مخنف: حدّثني فُضيل بن خديج، عن مالك بن الحور، إنّ عليّاً عليه السلام قال: «رحم الله محمّداً! كان غلاماً حدثاً، أما والله لقد كنت على أن أُولّي المرقال هاشم بن عتبة مصر، أما والله لو أنّه ولّيها ما خلّى لعمرو بن العاص وأعوانه الفجرة الفرصة، ولما قتل إلاّ وسيفه في يده، فرحم الله محمّداً، فقد اجتهد نفسه، وقضى ما عليه».

هذا وقد كان للإمام علي عليه السلام كلام في رثائه، يتضح منه مكانة محمد وصفاته الرفيعة الجليلة:

قال عليه السلام: «كان لي ربيباً، وكنت أعده ولداً، ولبنيَّ أخاً».[1]

و قال عليه السلام : «إنّ حزننا عليه على قدر سرورهم به، إلا أنهم نقصوا بغيضاً، ونقصنا حبيباً».[2]

وقال أيضاً: «وإنك يا محمد لنجيب أهل بيتك». وقيل له عليه السلام: لقد جزعت على محمد بن أبي بكر جزعاً شديداً يا أميرالمؤمنين؟ فقال: «ما يمنعني إنه كان لي ربيباً وكان لبني أخاً وكنت له والداً أعده ولداً».

وجاء في كتاب له لعبدالله بن عباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر:

أما بعدُ، فإنّ مصر قد افتتحت، ومحمد بن أبي بكر رحمه الله قد استشهد. فعند الله نحتسبه ولداً ناصحاً، وعاملاً كادحاً، وسيفاً قاطعاً، وركناً دافعاً...[3]

وفي خبر أن عبدالله بن عباس قدم على عليّ عليه السلام من البصرة، فعزاه على محمد بن أبي بكر رحمه الله.[4]

---

١ . الغارات١ : ١٩٠ ـ ١٩٤.

٢ . نهج البلاغة: ٥٣٢ ، رقم ٣٢٥.

٣ . من كتابه لعبدالله بن عباس، بعد مقتل محمد بن أبي بكر؛ نهج البلاغة، د. صبحي الصالح: ٤٠٨ ، رقم ٣٥.

٤ . الغارات ١ : ١٩٨.

أما أمّه أسماء، فقد عانت من أحداث جسام تعاقبت عليها، كتمت آلامها، وتعالت على جراحها، حين جاءها مصرع ولدها محمد بن أبي بكر، فراحت تتلوي مما تركه نبأ استشهاده من أثر مؤلم على قلبها، فحبست دمعها، وكتمت حزنها، وعكفت في مصلاها حتى شخب ثديها ونزفت...

فعن أبي إسحاق: أن أسماء بنت عميس لما أتاها نعيُ محمد بن أبي بكر وما صنع به، كظمت حزنها، وقامت إلى مسجدها حتى تشخبت دماً. وفي رواية تشخب ثدياها دماً.

وتحت عنوان رؤيا أسماء بنت عميس، وتعبير النبيﷺ لرؤياها، ذكر صاحب كتاب الغارات عن أبي إسماعيل كثير النواء، أنّ أبا بكر خرج في غزاة، فرأت أسماء بنت عميس في منامها وهي تحته، كأنّ أبا بكر مخضب بالحناء رأسه ولحيته، وعليه ثياب بيض، فجاءت إلى عائشة فأخبرتها، فقالت: إن صدقت رؤياك فقد قتل أبو بكر إن خضابه الدم و إن ثيابه أكفانه، ثم بكت فدخل النبيﷺ وهي كذلك فقال: ما أبكاها؟!

فقالوا: يا رسول الله ما أبكاها أحد، ولكن أسماء ذكرت رؤيا رأتها لأبي بكر، فأخبر النبيﷺ فقال: ليس كما عبرت عائشة، ولكن يرجع أبو بكر صالحاً، فيلقي أسماء، فتحمل منه أسماء بغلام تسميه محمداً، يجعله الله غيظاً على الكافرين والمنافقين، فكان الغلام محمد بن أبي بكر رحمه الله قتل يومئذ، فكان كما أخبر.

وأما أخته عائشة:

فعن عبدالملك بن عمير عن عبدالله بن شداد قال: حلفت عائشة لا تأكل شواءً أبداً، فما أكلت شواءً بعد مقتل محمد حتى لحقت بالله! وما عثرت قط إلا

قالت: تعس معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن خديج.[1]

ولما بلغ عائشة ـ رضي الله عنها ـ قتل أخيها محمد بن أبي بكر هذا وجدت عليه وجداً عظيماً وأخذت أولاده وعياله وتولت تربيتهم.[2]

وأنها جزعت عليه جزعاً شديداً، وصارت تقنت في دبر كلّ صلاة، تدعو على معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن خديج، بسبب ما جرى لمحمد بن أبي بكر.

ثمّ قبضت عيال محمد إليها، فكان القاسم بن محمد بن أبي بكر في عيالها صغيراً.

فيما ترك في مقابل ذلك الحزن شماتة الشامتين، وسرور المبغضين له، ففي مقابل حزن أسماء بنت عميس على ابنها، وحزن عائشة على أخيها، كانت فرحة ضرتها أم حبيبة «أم المؤمنين» بنت أبي سفيان أخت معاوية، فقد ابتكرت بكيدها أسلوباً للشماتة بمقتل محمد.

ففي الغارات للثقفي: «لما قتل ووصل خبره إلى المدينة مع مولاه سالم ومعه قميصه، ودخل به داره اجتمع رجال ونساء! فأمرت أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وآله بكبش فشُوِيَ، وبعثت به إلى عائشة وقالت: هكذا قد شُوِيَ أخوك! فلم تأكل عائشة بعد ذلك شواء حتى ماتت»! (وروى نحوه البلاذري ورواه الدميري في الحيوان).[3]

وهناك فريق ثالث لاذ بالسكوت، فقد سكت عبد الرحمن بن أبي بكر عن أخذ ثأر أخيه سكوتاً ذليلاً، فقد كان في جيش عمرو العاص، واعترض على

---

١ . أنظر كتاب الغارات١ : ١٨٩.

٢ . النجوم الزاهرة : ٤٥.

٣ . وانظر أنساب الأشراف٤ ؛ الحيوان، للدميري١ :٤٠٤.

قتل أخيه محمد، لكن ابن خديج أصرّ عليه، لأنهم قتلوا كنانة بن بشر، وهو كندي من قبيلته! فسكت عبد الرحمن ولم يقل شيئاً!

وكذلك سكت بنو تَيْم عن الأخذ بثأر محمد بن أبي بكر من بني أمية؛ مع أنّ القبائل لا تسكت عادة عن ثأر ابنها، وحتى عن ثأر حليفها وغلامها!

وأخيراً سكتت أخته عائشة أو أسكتت، فلم تُحرض على معاوية، كما فعلت مع الخليفة عثمان، بل صمتت حتى ماتت! «فإنّ معاوية لما حج قدم فدخل على عائشة، فلم يشهد كلامها إلا ذكوان مولى عائشة، فقالت لمعاوية: أأمنتَ أن أخبئ لك رجلاً يقتلك بأخي محمد؟ قال: صدقت، وفي خبر آخر قال معاوية: لا أخاف ذلك لأني في دار أمان، لكن كيف أنا في حوائجك؟! قالت: صالح. قال: فدعيني وإياهم حتى نلتقي عند الله»!

ويبدو من هذا أنه أسكتها بقضاء حاجاتها، وأرضاها بالمال...[1]

وخلّف ابنه القاسم:

وقد خلّف محمد بن أبي بكر ابناً له اسمه القاسم بن محمد بن أبي بكر، وقد عاش مع والديه في مصر فترة ولاية أبيه عليها. وبعد استشهاد أبيه عاد إلى المدينة، وهو في السنة السابعة من عمره؛ ليكمل حياته فيها حتى غدا من فقهائها ومحدثيها. وقد اختلف في تاريخ وفاته. ولعلَّ الأرجح أنها كانت في السنة الثامنة بعد المائة، عن عمر قدر بثلاث وسبعين سنة، أو سبعين، حسب اختلاف الروايات بين المؤرخين في تاريخ وفاته.

مشهد محمد بن أبي بكر:

قيل: إنّ له مرقداً أو مشهداً في القاهرة، يلقبه المصريون مرقد الإمام محمد

١ . سير الذهبي٢ : ١٨٦ ؛ والطبري ٤ : ٢٠٥ ؛ شرح الأخبار ٢ :١٧١.

الصغير، ويقال: إنه يقع قريباً من مرقد عمرو بن العاص الذي قاد جند معاوية ضد الإمام علي بن أبي طالب ..ويقال: إنّ هناك مسجداً وضريحاً له في قرية ميت دمسيس ـ مركز أجا التابعة للمنصورة بمحافظة الدقهلية ـ وهو ما يذهب إليه صالح الورداني حيث يذكر التالي:

ويقع مرقده في بلدة ميت دمسيس التابعة للمنصورة. وهناك قبر ناحية الفسطاط يقال: له محمد الصغير والعامة يعتقدون أنه محمد بن أبي بكر.. إلاّ أنّ الراجح أنّ مرقده ناحية المنصورة.[1]

وتقول الدكتورة سعاد ماهر: يقع هذا المسجد ـ مسجد محمد الصغير ـ في مصر القديمة، بشارع باب الوداع، قريباً من الباب عن يسرة السالك نحو الشرق إلى باب الوداع، وبجوار قبر منهدم يعرف بالكردي، ويعرف الجامع باسم (محمد الصغير) كما كان يعرف باسم (زمام)، وذلك أنّه بعد مضيّ مدّة من قتله، أتى زمام مولى محمد بن أبي بكر إلى الموضع الذي دُفن فيه، وحفر فلم يجد سوى الرأس، فأخذه ومضى به إلى المسجد المعروف اليوم بمسجد زمام، فدفنه فيه وبنى عليه المسجد. ويقال إنّ الرأس مدفون في القبلة، وبه سمِّي مسجد زمام.[2]

مع علماء الرجال:

فإضافة إلى ما حظي به هذا العبد الصالح من منزلة رفيعة عند الإمام علي عليه السلام، كما ذكرنا ذلك، فقد احتل مكانةً كريمةً عند علماء الرجال، الذين قالوا عنه: إنه من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام والمقربين منه، و من أصفيائه، وحواريه، وخواصه، وقالوا عنه أيضاً: إنه عظيم المنزلة جليل القدر...

١ . كتاب الشيعة في مصر، صالح الورداني:١٠٩.

٢ . كتاب «مصر وأولياؤها الصالحون».

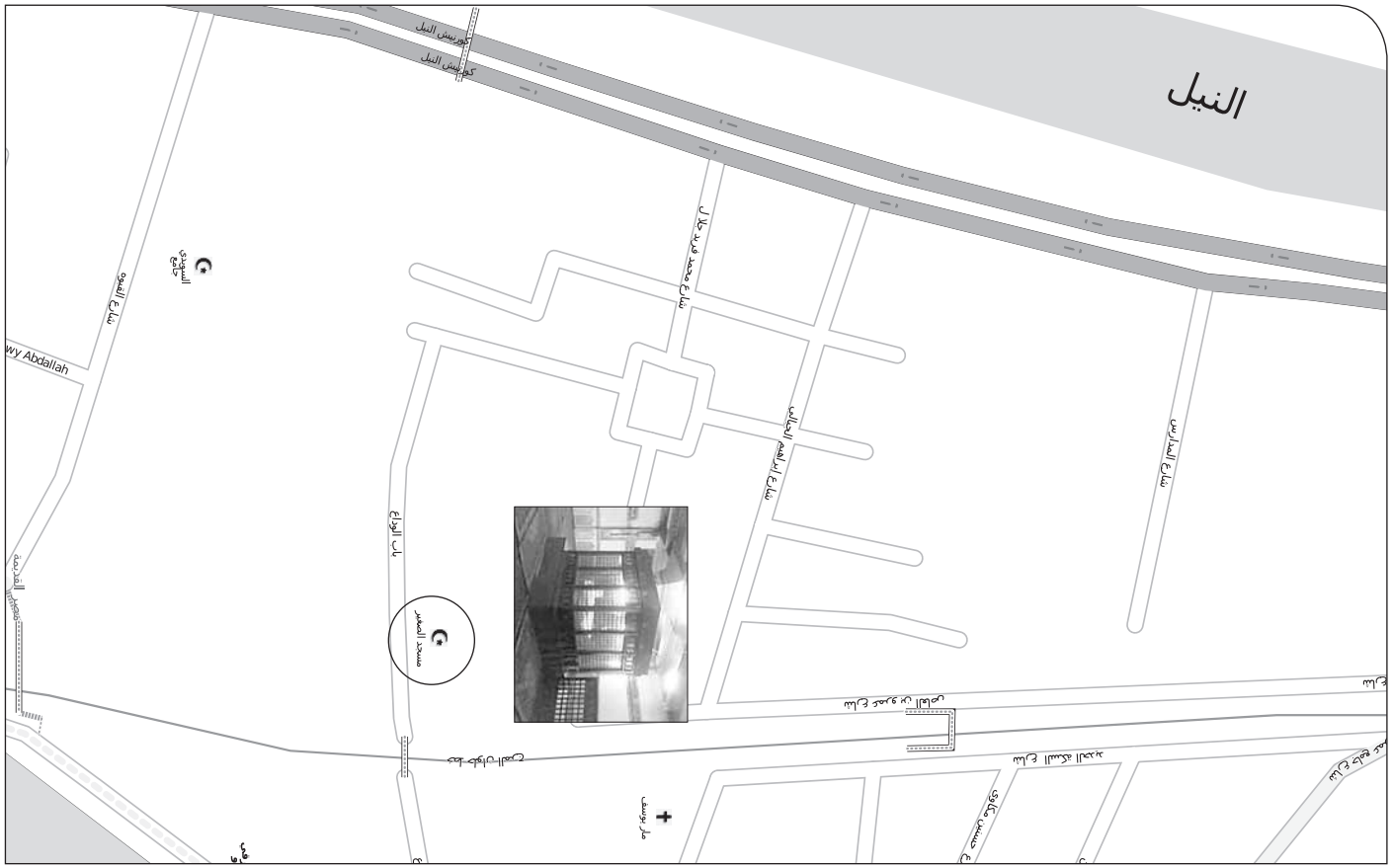
النيل
كورنيش النيل
شارع الهرم الرئيسي
شارع المعارض
باب الوداع
مسجد الصحابي
السيدي
جامع
الفرعية

ومع أنه ولد في حجة الوداع سنة ١٠ هـ، والنبي ﷺ مات سنة ١١ هـ، فربما رأى النبي ﷺ فهو من صغار الصحابة، فيما إذا كانت الرؤية في مثل سنه كافية في عدّه من الصحابة، ولكنه و بلا شك هو من كبار التابعين.

وقع كلام في أنه صحابيٌّ أم تابعيٌّ، فقد نسب إلى الدكتور محمد الدسوقي، أستاذ الشريعة بجامعة القاهرة وقطر قوله: إنّ محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنهما هو من التابعين، وقد اختلف الفقهاء في محمد بن أبي بكر، فقيل: إنه صحابي، وقيل :إنه تابعي، والذين قالوا بصحبته اعتمدوا فقط على الحديث الذي رواه مرسلاً عن النبي ﷺ ليس إلا، فظنوا أنّ محمداً سمعه من النبي مباشرة، والأصح أنه رواه بصفة الإرسال أو الإخبار فقط، وهذا الحديث أخرجه البغوي في ترجمته من طريق عبد العزيز بن رفيع عن محمد بن أبي بكر قال: أظلمت ليلة وكان لها ريح ومطر، فأمر رسول الله ﷺ المؤذنين أن ينادوا: صلوا في رحالكم. ثم قال: لا أحسبه محمد بن الصديق. قلت: بل هو محمد بن أبي بكر الصدّيق، لكن رواه بطريقة الإرسال.

وإنما البغوي استنكر أن يكون محمد هذا هو ابن أبي بكر؛ لأنه تابعي، وظاهر الرواية كما رآها البغوي أنّ محمداً هذا الذي يرويها صحابي؛ لأنه قالها بصفة مباشرة عن النبي ﷺ كذا كذا، فلذلك اعتقد البغوي أنّ محمداً الذي يروي الحديث صحابي، لكنه آخر غير محمد بن أبي بكر التابعي وهذا خطأ، وإن أردنا الجمع بين الرواية و بين أنّ محمد بن أبي بكر تابعي و هو قائلها، فيكون الحل هنا هو أنّ محمداً رواه بالإرسال إلى زائد أنه لا يوجد صحابي باسم محمد بن أبي بكر غير ابن أبي بكر الصديق مطلقاً.

ومحمد بن أبي بكر الصدّيق تابعي، وليس صحابياً، فهذا الحديث مرفوع إلى النبي ﷺ «لأن محمد بن أبي بكر تابعي» فقد رواها عن النبي ﷺ وكأنها

بصيغة الرؤية والحضور، والأصح أنه لم يحضر النبي ولا سمع منه، و لكن الحديث رواه محمد بن أبي بكر عن رجل من الصحابة لم يذكر اسمه، أي أنه ذكر الحديث بصيغة المعرفة، مركزاً على المتن ولم يذكر السند، وحتى ولو لم يذكر من حدثه، فالحديث صحيح بناءً على عدالة و ثقة محمد بن أبي بكر؛ لأنه صدوق.[1]

فيما قال ابن حجر: قال الطبراني: له صحبة، وهو آخر من جاء من مصر في أثر عثمان.[2]

وعدّه الشيخ في رجاله (تارة) في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله قائلاً: «محمد بن أبي بكر، ولد في حجة الوداع، وقتل بمصر سنة (٣٨) من الهجرة في خلافة علي عليه السلام، وكان عاملاً عليها من قبله».

و (أخرى) في أصحاب علي عليه السلام، قائلاً: محمد بن أبي بكر ابن أبي قحافة.

وعدّه المفيد من أصفياء أصحاب علي عليه السلام (تارة)، ومن السابقين المقربين منه عليه السلام (أخرى)، ومن الحواريين (ثالثة).[3]

وعدّ البرقي محمّد بن أبي بكر من شرطة الخميس، ومن الحواريّين للإمام علي عليه السلام وأصفيائه ومن السابقين المقرّبين، وكان ذا فضل وعبادة.

عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «كان عمّار بن ياسر، ومحمد بن أبي بكر لا يرضون أن يعصى الله في الأرض».

ويروى أنّ محمد بن أبي بكر من المحامدة الأربعة، الذين يأبون أن يعصى الله

---

١ . عن وكالة أهل البيت عليهم السلام للأنباء ـ أبنا ـ التابعة للمجمع العالمي لأهل البيت: تحت رقم: ٢٢١٩٧٧ في ٢١/ ١/ ٢٠١١.

٢ . كتاب الإصابة في معرفة الصحابة ٤: ٢٨٦.

٣ . الاختصاص: عند بيان شرطة الخميس في أول الكتاب، وفي ذكر السابقين المقربين من أمير المؤمنين عليه السلام.

عزّوجلّ، وهم محمد بن أبي بكر، ومحمد بن علي بن أبي طالب، المعروف بابن الحنفيّة، ومحمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن جعفر بن أبي طالب الطيّار.

ولد محمد بن أبي بكر في حجّة الوداع، خرجت به أُمّهُ حاجّة مع زوجها أبي بكر فوضعته بـذي حُلَيفة، «مسجد الشجرة» لخمس بقين من ذي القعدة في حجّة الوداع، تربّى وترعرع في حجر الإمام عليعليه السلام بعد ما تزوّج أمّه أسماء بنت عميس، بعد وفاة أبي بكر.

شهد محمد بن أبي بكر مع الإمام عليعليه السلام وقعتي الجمل بالبصرة، وصفّين، وكان قائداً على الرجّالة، ثمّ بعثه الإمام إلى مصر والياً من قبله، فقتل فيها، وفي سنة ٣٨ هجريّة، زحفت على مصر جيوش الشام فقاتلهم محمد قتال الأبطال فقتل فيها، كان يسمّى أبا القاسم.

كان مع الإمام خمسة رجال بارزين من قريش، محمد بن أبي بكر أتته النجابة من قبل أُمّه أسماء بنت عميس الخثعميّة، هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص المرقال، جعدة بن هبيرة المخزومي أُمّه «فاختة» أخت الإمام عليعليه السلام، محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن الربيع، خالد بن سعيد بن العاص بن ربيعة من بني أُميّة...

ولد محمد بن أبي بكر في حجّة الوداع، خرجت به أُمّهُ حاجّة مع زوجها أبي بكر فوضعته بـذي حُلَيفة، «مسجد الشجرة» لخمس بقين من ذي القعدة في حجّة الوداع تربّى وترعرع في حجر الإمام عليعليه السلام بعد ما تزوّج أمّه أسماء بنت عميس بعد وفاة أبي بكر.[1]

وبعد أن ذكر السيد الخوئي في ترجمة محمد بن أبي بكر روايات عديدة، قال عنها التالي: هذه الروايات وإن كان بعضها ضعيف السند، إلاّ أنّ في الصحيح منها كفاية في إثبات جلالة وعظمة محمد بن أبي بكر، وقربه من عليعليه السلام.

١ . أنظر معجم رجال الحديث، للسيّد الخوئي١٤: ٢٣٠؛ والمصادر.

وفي آخر كتاب عليعليه السلام إلى أهل مصر ومحمد بن أبي بكر:

«أحسنوا أهل مصر مؤازرة محمد أميركم واثبتوا على طاعته، تردوا حوض نبيكم صلى الله عليه وآله، أعاننا الله وإياكم على ما يرضيه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».[1]

وأما ما قالوه عن ابنه القاسم:

فقد عده الشيخ تارةً في أصحاب السجادعليه السلام، وأخرى في أصحاب الباقرعليه السلام، مقتصراً على قوله: القاسم بن محمد.

وكذلك ذكره البرقي في أصحاب الصادقعليه السلام، وهو جدّ الصادقعليه السلام لأمّه أم فروة، ذكره المفيد في الإرشاد: باب ذكر الإمام القائم بعد أبي جعفر محمد بن عليعليه السلام.

وذكره الكليني في أول باب مولد أبي عبدالله، من كتاب الحجة، والقاسم هذا ابن خالة السجادعليه السلام، وأمه أخت شاه زنان بنت يزدجر بن شهريار بن كسرى.[2]

وذكره المفيد في الإرشاد: باب ذكر الإمام بعد الحسين بن عليعليه السلام، فقد جاء عنهم أنّ أمّ الإمام الصادقعليه السلام هي أمُّ فروة بنت القاسم الفقيه ابن محمد بن أبي بكر، وأمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، ولهذا كان الصادقعليه السلام يقول: ولدني أبو بكر مرتين.

روى الكليني، عن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن عبدالله بن أحمد، عن إبراهيم بن الحسن، قال: حدثني وهب بن حفص، عن إسحاق بن جرير،

---

١ . معجم رجال الحديث، للسيد الخوئي :١٥٢٤١ رقم ٩٩٩٠ ، ترجمة محمد بن أبي بكر؛ وفيه مصادر ذلك.

٢ . الكافي ١: ١١٩.

قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: كان سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وأبو خالد الكابلي من ثقات علي بن الحسين عليه السلام.

وروى عبدالله بن جعفر الحميري، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر البزنطي، قال: وذكر عند الرضا عليه السلام القاسم بن محمد خال أبيه وسعيد بن المسيب، فقال عليه السلام: «كانا على هذا الأمر». وقال: «خطب أبي إلى القاسم بن محمد ـ يعني أبا جعفر عليه السلام ـ فقال القاسم لأبي جعفر عليه السلام: إنما كان ينبغي لك أن تذهب إلى أبيك حتى يزوجك».[1]

أقول: لم يظهر وجه كون القاسم بن محمد خالاً لأبي الإمام الرضا عليه السلام، فإنه جده لا خاله.[2]

القاسم هو جدُّ الإمام الصادق عليه السلام من أمّه، وبالتالي فهو ليس الجدّ المباشر للإمام الرضا عليه السلام بل هو الجدّ الثالث له.

١ . قرب الإسناد : ٣٥٨، كتاب قرب الإسناد إلى الرضا عليه السلام، الحديث ٢٥.

٢ . معجم رجال الحديث، للسيد الخوئي ١٥ : ٤٨ رقم ٩٥٥٨، وفيه مصادر ذلك.